جامعة مؤتة
عمادة الدراسات العليا

صورة المدينة في الشعر الشاميّ في القرنيين السادس والسابع الهجريين

إعداد الطالبة
آلاء سالم إبراهيم بني سلامة

إشراف
الأستاذ الدكتور شفيق محمد الرّقب

رسالة مقدمة إلى عمادة الدراسات العليـــــــــا
استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير
في الأدب قسم اللغة العربية وآدابهـــــــــــا

جامعة مؤتة، ٢٠١١

الإهـــــداء

إلى من كلله الله بالهيبة والوقار إلى من علمني العطاء بدون انتظار .. إلى من أحمل اسمه بكل افتخار .. أرجو من الله أن يمد في عمرك لترى ثماراً قد حان قطافها بعد طول انتظار.... وستبقى كلماتك نجوم أهتدي بها اليوم وفي الغد وإلى الأبد.... والدي العزيز

إلى رفيق الدرب والزوج الغالي، إلى الذي ظل في سمائي يستمطرني بالأمل الباسم، ويشمخ بنا فوق الآلام، " نشأت "

إلى ملاكي في الحياة إلى معنى الحب وإلى معنى الحنان والتفاني إلى بسمة الحياة وسر الوجود إلى من كان دعاؤها سر نجاحي وحنانها بلسم جراحي إلى أغلى الحبايب..... أمي الحبيبة

إلى والدي وعمي الغالي " أبو حسن " الذي شجعني على مواصلة العلم.....

إلى ابني زهرة حياتي " معتصم "

إلى الأخوات اللواتي لم تلدهن أمي .. إلى من تحلوا بالإخاء وتميزوا بالوفاء والعطاء إلى ينابيع الصدق الصافي إلى من معهم سعدت، وبرفقتهم في دروب الحياة الحلوة والحزينة سرت، إلى من كانوا معي على طريق النجاح والخير إلى من عرفت كيف أجدهم وعلموني أن لا أضيعهم..... صديقاتي

إلى هؤلاء جميعاً أهدي ثمرة جهدي المتواضع

آلاء بني سلامة

الشكر والتقدير

بعد حمد الله والثناء عليه، أتقدم بجزيل شكري وعرفاني وتقديري إلى الأستاذ الدكتور شفيق محمد الرّقب على ما منحي إياه من وقته وجهده في إشرافه على هذه الرسالة، وجعل الله هذا العمل في ميزان حسناته.

كما وأتقد م بالشكر الجزيل إلى أعضاء هيئة المناقشة على تفضلهم بمراجعة الرسالة وتدقيقها لتخرج بأفضل صورة.

وإلى كل من ساهم في إنجاز هذا العمل.

آلاء بني سلامة

فهرس المحتويات

المحتوى	الصفحة
الإهداء	أ
الشكر والتقدير	ب
فهرس المحتويات	ج
الملخص باللغة العربية	هـ
الملخص باللغة الإنجليزية	و
المقدمة	١
التمهيد: الأوضاع العامّة للمدن في ديار الشام في القرنين السادس والسابع الهجريّين	٣
الفصل الأول: مدح المدن ووصفها	
١.١ مدح المدن ووصفها	٢٢
١.١.١ مدح المدينة الإسلامية	٢٥
٢.١ وصف المدينة المحتلة	٤٧
الفصل الثاني: هجاء المدن	٦٥
١.٢ هجاء المدن	٦١
الفصل الثالث: رثاء المدينة الإسلامية	
١.٣ رثاء المدن الإسلامية	٧٩
١.١.٣ رثاء بيت المقدس وديار الشام عامة سنة ٤٩٢هـ	٨٠
٢.١.٣ رثاء المعرة	٨٦
٣.١.٣ رثاء عسقلان	٨٧
٤.١.٣ رثاء حوران	٨٨
٥.١.٣ رثاء بيت المقدس سنة ٦١٦هـ	٩٢
٢.٣ الغزو المغولي	٩٥
الفصل الرابع: التصوير الفنيّ للمدينة الإسلامية	
١.٤ مصادر الصورة	٩٩

١.١.٤ القرآن الكريم ٩٩
٢.١.٤ الإنسان ١٠٢
٣.١.٤ الحياة الاجتماعية ١٠٩
٤.١.٤ الحروب ١١١
٥.١.٤ الطبيعة ١١٢
٢.٤ الصورة والحواس ١١٤
٣.٤ التشكيل البلاغي لصورة المدينة ١٢٠
الخاتمة ١٢٤
المراجع ١٢٨

الملخص

صورة المدينة في الشعر الشاميّ في القرنيين السادس والسابّع الهجرييّن

آلاء سالم بني سلامة

جامعة مؤتة، ٢٠١١

عالجت هذه الدراسة موضوعاً أدبيّاً كشفت من خلاله عن مدى تفاعل الأدب مع البيئة المحيطة به، وما فيها من أحداث ومظاهر عمرانيّة، وتشكّلت من تمهيد وأربعة فصول، درس التمهيد الأوضاع العامّة للمدن في ديار الشام في القرنيين السادس والسابع الهجرييّن من الناحية السياسية، والناحية الاجتماعية، والناحية الفكرية.

ودرس الفصل الأول صورة المدينة الإسلاميّة من خلال مدح المدن ووصفها، وبيّن أنّ الشعر صوّر مظاهر الحياة الحضارية كالقصور والمدن، ووصف مناظر الطبيعة التي تحيط المدينة كالرياض والبساتين والبرك والربيع، وتغنى بجمال أزهار الرياض وثمارها ورسم لوحات فنية ناطقة بالجمال والحيوية.

وتناول الفصل الثاني هجاء المدن والدوافع التي جعلت الشاعر يذّم المدينة وينفر منها ويفضل الإقامة بعيداً عنها، فقد عانى الشعراء حالة الفقر والحرمان وضيق الحال والعسر مما دفعهم إلى نسج قصائدهم التي يترجمون فيها حالتهم الاجتماعية البائسة والشكوى من المدينة التي يقطنون فيها .

وتناول الفصل الثالث غرضاً شعرياً يرتبط بتاريخ العصر، وهو رثاء المدن، فقد كان للغزو الصليبي أثر واضح في تدمير المدن وخرابها وتقويض مظاهر العمران، فصور الشعراء ضروب الفواجع والمآسي التي تعرضت لها هذه المدن قبل الفاجعة والحالة التي آلت إليها المدن أثناء النكبة بأسلوب بكائيّ حزين.

وحلّل الفصل الأخير الصورة الفنيّة في شعر المدن من خلال دراسة مصادر الصورة وأنماطها الحسيّة والتشكيل البلاغي لها.

Abstract

The city's image in Al-shami poetry in the sixth and seventh Hijri Centurios

Alaa Salem Bani salameh

Mutah University, 2011

This study talked a literary subject which reveled the extent of interaction with the environment surrounding it, with its events and aspects of construction.

The study included an introduction and four chapters, The introduction studied the general conditions for cities in Ai-shami lands in the hijri sixth and seventh centuries, from the political, and socially, and intellectual side.

The first chapter studied the image of the Islamic city through flattering the cities and their description, Also it clarified that poetry pictured the civilized aspects of life such as palaces and cities. Besides describing the natural scenes that surround the cities, such garden , orchards, ponds, spring, It also praised the beauty of flowers, and their fruit and a drawing artistic paintings expressing beauty and activity.

The Second chapter criticized the cities and the motives urged the poet to curse the city and alienate it and prefer to stay away from them, the poets suffered from poverty, deprivation and hardship which, urged them to make poetry, expressing their social and miserable condition and to complain from the city where the live.

The third chapter dealt a poetic purpose related to the age in story which is the lamentation of cities, There was a clear impact for the crusader invasion on the destruction of cities, and to undermine the aspects of construction.

The poetry reflected the cruelty and tragedies the cities faced and the situation that led to calamities in a crying sad way.

The last chapter analyzed the artistic picture the poetry of cities through studying the sources of the image and the sensory patterns and rhetoric composition for it.

المقدمة:

كان للمدن الإسلامية حضورٌ واضحٌ في الشعر الشاميّ في القرنيين السادس والسابع الهجريين، وذلك بسبب الأحداث الجسام التي ألمّت بالأمّة آنذاك، وانتقال مركز الخلافة من بغدادَ إلى مدنٍ أخرى، وازدهار مظاهر الحضارة والعمران الاجتماعي فيها.

وترمي هذه الدراسة إلى دراسة الشِّعر الذي قيل في المدن الإسلاميّة في القرنيين السادس والسابع الهجريين، وذلك لبيان العوامل التي أدّت إلى حضور المدينة الإسلاميّة في الشِّعر الشامي في القرنيين السادس والسابع الهجريين، وتحليل الموضوعات الشّعرية التي تناولها الشعراء في سياق حديثهم عن المدينة الإسلاميّة، وتحليل الصور التي رسمها الشعراء للمدينة الإسلاميّة، وبيان أهميّة الشعر الذي قيل في المدينة الإسلاميّة في الدراسات التاريخيّة والاجتماعيّة لذلك العصر.

وتتمثّل أهميّة البحث في دراسة ظاهرة هامّة في الشِّعر الشاميّ في القرنيين السادس والسابع الهجريين، حيث اهتّم الشعراء آنذاك برثاء هذه المدن ووصفها ومدحها وهجائها وتصوير مظاهر العمران فيها. وهذا النوع من الدراسات، بالإضافة إلى قيمته الأدبية، فإنّه يعمّق معرفتنا للعصر وما كان يموج فيه من تيارات سياسيّة، ومظاهر اجتماعيّة، واتجاهات مذهبيّة، وصور حضاريّة.

وسوف يُحلّل الشعر في هذه الدراسة في ضوء التاريخ، وفي ضوء المعلومات التي قدّمها الرحّالة المسلمون عن البلدان الشاميّة التي زاروها، مع الاهتمام ببيان النواحي الجماليّة في هذا الشِّعر، لذا فإنَّ الدراسة ستفيد من المنهجيين التاريخيّ والفنيّ والتحليليّ.

وتقع هذه الدراسة في تمهيدٍ وأربعة فصول وخاتمة، يتناول التمهيد الأوضاع العامّة للمدن في ديار الشَّام في القرنيين السادس والسابع الهجريين، ويدرس الفصل الأول مدح المدن ووصفها من خلال بعدين أساسيين هما: مدح المدينة الإسلاميّة، والبعد الثاني وصف المدينة المحتلة، وذلك باعتبار المدينة قوّة إلهاميّة تستدعي المدح أو الوصف، ويدرس الفصل الثاني هجاء المدينة، أما الفصل الثالث فيكشف عن الشِّعر الذي قيل في رثاء المدن آنذاك، ويحلل الفصل الرابع الصورة الفنية

للمدينة من حيث مصادرها، وأنماطها الحسيّة، والتشكيل البلاغيّة للصورة، وتنتهي الدراسة بخاتمة تلخّص أهم النتائج التي توصلّت إليها.

وأخيراً فإنيّ أرجو الله –عزّ وجلّ– أن أكون قد أصبت التوفيق في هذه الدراسة، فله – سبحانه– الحمد من قبلُ ومن بعدُ.

التمهيد

الأوضاع العامّة للمدن في ديار الشام في القرنين السادس والسابع الهجريّين

كانت صفحة الحروب الصليبيّة هي الصفحة المميزة للحياة السياسية في بلاد الشام في القرنيين السادس والسابع الهجريّين، فقد بسط الفرنجة نفوذهم على معظم المدن الشاميّة الكبرى، باستثناء دمشق وحلب، فقد ظهر الجيش الصليبيّ أمام أسوار إنطاكية، سنة ٤٩١هـ/١٠٩٧م، وظل محاصراً لها حتى استولى عليها، مؤسسا بها إمارة، ثم بسط نفوذه على الرها، وأسس بها إمارة ثانية سنة ٤٩١ هـ/١٠٩٨م، ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل بدأت أطماع الصليبيّن تتجه نحو بيت المقدس، فسيطروا عليه، وأسسوا فيه إمارة ثالثة فيه ٤٩٢هـ/١٠٩٩م، وكانت الخاتمة لمدينة طرابلس الذي ظل الجيش الصليبيّ محاصِرا لها سنين عديدة، حتى سقطت سنة ٥٠٢هـ/١١٠٩م، وأسس إمارة رابعة فيها.

وكان الصليبيّون يعيثون فساداً في كل مدينة يحتلونها، فعند دخولهم بيت المقدس بعد حصار دام أربعين يوماً[١] اقتحموا المدينة من جهتها الشمالية، فلاذ المسلمون ببيت المقدس لعلهم ينجون من القتل، وفتحت أبواب المدينة المقدسة، فدخلت الجيوش الصليبيّة في اندفاع وتعطش لدماء دون تنظيم سنة ٤٩٢هـ، ثم تعقب الصليبيّون أهل المدينة الذين لاذوا بالمسجد الأقصى، فأغلق المحتمون الأبواب خوفاً منهم، فأعطاهم الصليبيون الأمان، ولما فتحوا لهم الأبواب نكثوا العهد، وقتلوا جميع من فيه وقد وصف كثيرٌ من المؤرخين أحداث المذبحة التي حدثت في القدس يوم دخول الصليبيين إليها، وكيف أنهم كانوا يزهون بأنفسهم لأن ركب خيولهم كانت تخوض في دماء المسلمين التي سالت في الشوارع، وروى ابن الأثير في تاريخه ما فعله الصليبيون عند دخول بيت المقدس قائلاً: "مَلَك الفرنج القدس نهار يوم الجمعة، لسبع بقين من شعبان، وركب الناس السيف، ولبث الفرنج في البلدة أسبوعاً يقتلون فيه المسلمين، واحتمى جماعة من المسلمين بمحراب داود، فاعتصموا به، وقاتلوا فيه

---

(١) ابن القلانسيّ، حمزة بن أسد بن عليّ، ذيل تاريخ دمشق، تحقيق: سهيل زكّار، دمشق، دار حسّان، ١٩٨٣، ص١٢٦.

ثلاثة أيام، وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفا، منهم جماعة كبيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف....."[١].

كما وصف ستيفن رنسيمان في كتابه ما حدث في القدس يوم دخلها الصليبيّون فقال: "وفي الصباح الباكر من اليوم التالي اقتحم باب المسجد ثلة من الصليبيّين، فأجهزت على جميع اللاجئين إليه، وحينما توجه قائد القوة ريموند أجيل في الضحى لزيارة ساحة المعبد أخذ يتلمس طريقه بين الجثث والدماء التي بلغت ركبتيه، وتركت مذبحة بيت المقدس أثراً عميقاً في جميع العالم، وليس معروفاً بالضبط عدد ضحاياها، غير أنها أدّت إلى خلو المدينة من سكانها المسلمين واليهود؛ بل أن كثيراً من المسيحيين اشتد جزعهم لما حدث...."[٢].

وتحدّث غوستاف لوبون في كتابه – نقلاً عن روايات رهبان ومؤرخين رافقوا الحملة الصليبيّة الحاقدة على القدس – عمّا حدث حين دخول الصليبيين للمدينة المقدسة من مجازر دموية لا تدل إلا على حقد أسود متأصل في نفوس ووجدان الصليبيين. قال الراهب "روبرت" أحد الصليبيين – المتعصبين وهو شاهد عيان لما حدث في بيت المقدس– واصفاً سلوك قومه: "كان قومنا يجوبون الشوارع والميادين وسطوح البيوت ليروا غليلهم من التقتيل، وذلك كاللبؤات التي خطفت صغارها! كانوا يذبحون الأولاد والشباب، ويقطعونهم إرباً إرباً، وكانوا يشنقون أناساً كثيرين بحبل واحد بغية السرعة، وكان قومنا يقبضون كل شيء يجدونه فيبقرون بطون الموتى ليخرجوا منها قطعا ذهبية! فيا للشره وحب الذهب، وكانت الدماء تسيل كالأنهار في طرق المدينة المغطاة بالجثث....."[٣].

---

(١) ابن الأثير، محمد بن محمد بن عبد الكريم، الكامل في التاريخ، بيروت، دار الكتاب العربي، ط٣، ١٩٨٠، ج٨، ص١٨٩ – ١٩٠.

(٢) رنسيمان، ستيفان، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٧، ج١، ص٤٠٤ – ٤٠٦.

(٣) لوبون، غوستاف، حضارة العرب، ترجمة: محمد بدران، جامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩٥٧، ص٣٢٥.

وعند دخول الصليبين المعرة، عاثوا خراباً وتدميراً، فقد وصف لوبون أعمالهم الوحشية إذ يقول: "وعمل الصليبيّون مثل ذلك في مدن المسلمين التي اجتاحوها، ففي المعرة قتلوا جميع من كان فيها من المسلمين اللاجئين في الجوامع والمختبئين في السراديب، فأهلكوا صبراً ما يزيد على مائة ألف إنسان –في أكثر الروايات– وكانت المعرة من أعظم مدن الشام بعدد السكان بعد أن فرَّ إليها الناس بعد سقوط إنطاكية وغيرها بيد الصليبيين...."(١).

وكان موقف حكام البلاد سلبياً من هذا الغزو الصليبيّ، فلم يستطيعوا الوقوف في وجهه ولاسيما الفاطميون، مما أثار استهجان بعض المؤرخين مثل ابن تغري بردي الذي قال "ولم ينهض الأفضل(٢) بإخراج عساكر مصر وما أدري ما كان السبب في عدم إخراجه مع قدرته على المال والرجال"(٣). غير أننا لا نعدم بعض الوثبات الإسلامية في وجه الفرنجة فقد نازلهم اتابك(٤) طغتكين حاكم دمشق في أكثر من موقعه وتمكن من التغلب عليهم، بيد أن حروبه لم تكن كلها مظفرة، وقد توفي سنة ٥٢٢هـ/١١٢٨م، "فأبكى العيون، وانكأ القلوب، وفتّ في الأعضاد"(٥)، فـ

---

(١) لوبون، حضارة العرب، ص٣٩٦ .

(٢) هو أمير الجيوش الملك الأفضل بن شاهنشاه بن الملك أمير الجيوش بدر الدين الجمالي، قام بالوزارة بعد أبيه، وقد عظم شأنه، قتل سنة ٥١٥ هـ، بتواطؤ من الأمر الفاطمي، انظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٥٨٩-٥٩١.

(٣) ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن محمد، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصريّة، القاهرة، (د.ت)، ج٥، ص١٤٧.

(٤) الأتابك: كلمة تركية مكونة من " أتا " وهو الأب، و"بك" وهو الأمير. وكان الأتابك يكلف من السلطان بالوصاية على واحد أو أكثر من أبنائه الذين لم يبلغوا سن الرشد. انظر: ابن خلكان: أبو العباس شمس الدين أحمد ابن محمد، وفيات الأعيان وأنباء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨، ج١، ص٣٦٥، وانظر: القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٣، ج٤، ص١٨.

(٥)ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص٣٤٨، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٦٥١.

"خلا الشام من جميع جهاته من رجل يقوم بنصرة أهله، فلطف الله بالمسلمين، بولاية عماد الدين زنكي....."[١].

تُعدُّ ولاية عماد الدين زنكي إيذانا بمرحلة جديدة في الصراع مع الغـزاة، فقـد جعل أساس حركته، تحقيق هدفين ساميين هما: توحيد المدن والإمارات المحلية فـي الجزيرة والموصل، ومجابهة الصليبيين اعتماداً على قاعدة عسكرية وبشرية واسعة النطاق[٢]. تمكن عماد الدين من خلال جهود مكثفة أن يوحِّد تدريجياً البلاد الإسلامية في الجزيرة الفراتية، ثم عبر الفرات وملك حلب، وغيرها من البلاد الشامية، وتطلع بعد ذلك إلى استعادة دمشق، فحاصرها ثلاث مرات لكنّه لم يتمكن من أخذها[٣].

ثم واصل عمليات التوحيد، ونازل الصليبيين في عدد من الحصـون والقـلاع، كحصن الأثارب[٤] الذي تمكن من السيطرة عليه، ثم توجَّه إلـى حصـن حـارم[٥] فحصره، فأنفذ إليه الأعداء يطلبون منه الصلح فأجابهم[٦] بالإضافة إلى شن العديـد من الغارات، وتمكن سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م[٧] من توجيـه ضـربة قاصـمة إلـيهم باسترداده للرها، منتزعاً أولى إماراتهم في البلاد الإسلامية.

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٥٩٤.

(٢) خليل، عماد الدين، الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشـام، بيـروت، ١٩٨٠، ص٢٨٧، وانظر: الرقب، شفيق، الشعر العربي في بلاد الشام في القـرن السـادس الهجـري، دار صفاء، عمان، ١٩٩٣، ص١٣.

(٣) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص٢٧٢. ابن الأثير، الكامل في التـاريخ، ج١١، ص٧٣-٧٥. وانظر: ابن العديم، كمال الدين الحلبيّ، زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق: سامي الدّهان، المعهد الفرنسيّ، دمشق، ١٩٦٨، ج٢، ص٢٥٨.

(٤) الأثارب: قلعة بين حلب وإنطاكية بينها وبين حلب ثلاث فراسخ. الحموي، ياقوت شـهاب الدين بن عبد الله البغدادي، معجم البلدان، دار بيروت للطباعة والنشر، بيـروت، ١٩٥٥، ج١، ص٢١٣ .

(٥) حارم: حصن حصين من إعمال حلب، المرجع نفسه، ج١، ص٣٦٧ .

(٦) أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي، الرّوضتين في أخبار الـدولتين: النوريّة والصلاحيّة، بيروت، دار الجيل، (د. ت)، ج١، ص٧٨.

(٧) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٤٣٦، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١١، ص٩٨.

بعد ذلك قصد قلعة جعبر[١] سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م وحاصرها وبينما هو مقيم عليها قتل[٢] فخسر المسلمون مجاهداً "لا يرى المقام بل لا يزال ظاعناً إما لرد عدو يقصده، وإما لقصد بلاد عدوه، وإما لغزو الإفرنج، وسد الثغور..."[٣]. وبعد وفاة عماد الدين، خلفه ابنه نور الدين زنكي الذي سار على النهج الذي رسمه والده في تكوين جبهة إسلامية قوية تضاهي الصليبيين وتخلص البلاد منهم، فقد ارتأى القائد المسلم أنه لا تستكمل قوة المسلمين لطرد الصليبيين، إلا بتوحيد مصر والشام، فيتجاذب القطران الغزاة على العدو: مصر "بعسكري بره وبحره، ونور الدين من جانب سهل الشام ووعره"[٤]. وكانت دمشق من أهم المدن التي تطلع إليها نور الدين، نظراً لتوسطها بين حلب والسواحل الشامية إضافة إلى ضعف حكامها وتذبذبهم، وطمع الغزاة في الاستيلاء عليها. لذا أرسل نور الدين إلى مصر حملات عديدة، تمكن في الأخيرة من إسقاط الدولة الفاطمية وتوحيد مصر والشام، في كيان عسكري واحد تحت قيادته[٥]. وتابع نور الدين عملياته العسكرية التي شنها ضد المد الصليبي، فبدأ يعمل على استعادة إمارة إنطاكية، التي خاض فيها، معارك مظفرة، استطاع أن يحرر فيها معظم الأراضي الواقعة شرقي نهر العاصي، ثم توجَّه بعد ذلك إلى تحرير إمارة الرّها، ومنها إلى إمارة طرابلس سنة ٥٤٣هـ/١١٤٩م[٦]، أما إمارة بيت المقدس استطاع نور الدين أن يعقد هدنة مع ملكها لمدة سنة[٧] إلا إن الصليبيين نقضوا العهد، فنهض نور الدين لتأديبهم سنة ٥٥٢هـ/١١٥٧م وهزمهم وألحق بهم خسارة كبيرة[٨].

---

(١) جعبر: قلعة على الفرات بين بالس والرقة. الحموي، معجم البلدان، ج١، ص٣١٣.

(٢) ابن واصل، جمال الدين، مفرج الكروب في إخبار بني أيوب، تحقيق: جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٥٣، ج٢١، ص٩٨.

(٣) أبو شامة، الرّوضتين في أخبار الدولتين: النوريّة والصلاحيّة، ج١، ص٨٥.

(٤) أبو شامة، الرّوضتين في أخبار الدولتين: النوريّة والصلاحيّة، ج١، ص٦٢٤، والعبارة لصلاح الدين.

(٥) ابن واصل، مفرح الكروب في أخبار بني أيوب، ج١، ص٢٠٠.

(٦) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١١، ص١٣٢.

(٧) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص٥١٦–٥١٧.

(٨) المرجع نفسه، ص٥٢٢. ابن العديم، بغية الطلب في تاريخ حلب، ج٢، ص٣٠٨.

تابعت جيوش نور الدين مسيرتها في مقارعة الصليبيين، مستعيدة الكثير من القلاع والحصون، وفي سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م، توفي نور الدين زنكي، فاضطربت بلاد الشام اضطراباً شديداً، وخاصة أن ابن نور الدين كان لا يزال صغيراً[١]، فتطلع صلاح الدين الأيوبي إلى ملكها، فأرسل صلاح الدين إلى الخليفة العباسي رسالةً، يسأله فيها تقليداً جامعاً بكل ما تشتمل عليه بلاد نور الدين، مبيناً "أن المراد هو كل ما يقوي الدولة.... ويجمع الأمة ويحفظ الألفة..... ويفتح بقية البلاد"[٢]. وذكر في رسالته أنه لا يتمكن من الصليبين وهو في مصر لـ "بعُد المسافة، وانقطاع العمارة، وكلال الدواب.....، وإذا جاورناه كانت المصلحة بادية، والمنفعة جامعة، واليد قادرة، والبلاد قريبة، والغزوة ممكنة، والميرة متسعة، والخيل مستريحة....."[٣].

وبعد أن تسّلم صلاح الدين مُلْكَ بلاد الشام تطلع إلى شن بعض الهجمات العسكرية، على عدد من المواقع الصليبية بهدف تدميرها، ففي سنة ٥٧٣هـ/١١٧٧م، هاجم القائد صلاح الدين الداروم[٤] وغزة وعسقلان ثم التقى بالصليبين في مرج العيون سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م وهزمهم هناك[٥]وفي السنة نفسها هاجم حصن بيت الأحزان[٦] واستطاع استعادته.

تابع صلاح الدين عمليات التحرير والتوحيد، فعقد العديد من المهادنات مع إمارتي طرابلس وبيت المقدس، التي كان لها أثرٌ واضحٌ في استكمال توحيد بلاد الشام، ثم بدأ يكتب إلى جميع البلاد يدعوهم إلى الجهاد، ويحثهم عليه، ويأمرهم

---

(١) ابن شداد، بهاء الدين، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق: جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٦٤، ص٥٠.

(٢) انظر هذه الرسالة في: أبو شامة، الرّوضتين في أخبار الدولتين: النوريّة والصلاحيّة، ج١، ص٦٢٢.

(٣) انظر هذه الرسالة في: المرجع نفسه، ج١، ص٦٢٢.

(٤) الداروم: قلعة بعد غزة للقاصد إلى مصر. الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص١٨٧.

(٥) ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج٢، ص٧٥.

(٦) بيت الإحزان: مخاضه على نهر الأردن، ويطلق عليه اليوم جسر بنات يعقوب. الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٣١٤.

بالتجهيز له بغاية الإمكان[١] فنازل الصليبيين في غير ما موقعه، واستهل عملياته العسكرية بالإغارة على الكرك، ثم أرسل إلى ابنه الملك الأفضل يأمره إن يرسل قطعة من الجيش إلى عكا لتدميرها ففعل[٢] ثم جهز صلاح الدين جيوشه، وسار نحو طبرية، مما دفع الصليبين لتجهيز جيوشهم استعداداً للقاء الجيوش الإسلامية، فالتقى الجمعان في موقعة حطين وكسر الصليبيون كسرة عظيمة[٣]، وتعد معركة حطين " مفتاح الفتوح الإسلامية "[٤] وتمكن في مدة وجيزة من أن يحرر معظم البلاد الإسلامية وعلى رأسها بيت المقدس سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م. أقضى تحرير بيت المقدس مضاجع الغزاة فجهزوا حملة صليبية ثالثة، أسفرت عن احتلال عكا من جديد سنة ٥٨٨هـ/١١٩٢م، وتوقيع صلح بينهم، كان من أهم بنوده أن يبسط الفرنجة نفوذهم على المدن الساحلية من صور إلى يافا.

وفي سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م، توفي صلاح الدين الأيوبي، بعد سلسة من الفتوحات الكبيرة ولكن حصل الذي لم يكن في الحسبان، إذ استعرّ بين أبنائه وذويه صراعٌ على السلطة، مما أتاح للفرنجة أن يحققوا مكاسب متنوعة كان من أعظمها احتلال عكا من جديد وقد بقيت بأيديهم حتى سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٤م. ويعلق القاضي الفاضل قائلا: "أما هذه البيت فإن الآباء منه اتفقوا فملكوا، والأبناء اختلفوا فهلكوا"[٥].

وإذا انتقلنا إلى الحديث عن البنية الاجتماعية للمدن الشامية الكبرى، فإننا نلاحظ أن هذه المدن ضمت عناصر وأجناساً متنوعةً، ولعل أبرز تلك الأجناس، الأتراك والأكراد والعرب والفرس والأرمن والروم بالإضافة إلى سلالات أوروبية

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١١، ص٥٢٩.

(٢) المرجع نفسه، ج١١، ص٥٣٠.

(٣) الأصفهاني، العماد، الفيح القسي في الفتح القدسي، تحقيق: محمد محمود صبح، الدار القوميّة للطباعة والنشر، القاهرة، (د.ت)، ص٧٧.

(٤) ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج٢، ص١٨٨.

(٥) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء الزمان، ج٣، ص٤٢.

استوطنت البلاد وتأقلمت فيها[١]. كان أهم عنصر فيه العرب، فهم السكان الأصليون لبلاد الشام، يشكلون الغالبية العظمى، إذ انتشرت قبائلهم في أنحاء متفرقة منها، ولعل أبرز هذه القبائل البدوية قبيلة طي وكلاب وبنو ربيعة وعقيل، أما العناصر الأخرى فكانت ثانوية، وعلى الرغم من أن العرب قد فقدوا سلطانهم السياسي في بلاد الشام خلال القرن ٦هـ إلا أنها كان لها الدور الفعّال في الحياة السياسية والاجتماعية، فقد لعبت القبائل العربية دوراً بارزاً في المجتمع الشامي، فساندوا الحكام تارة، وناوءوهم تارة أخرى.

ومن الجدير بالذكر أن نضيف إلى العناصر السابقة الإفرنج الذين غزوا بلاد الشام وانتشروا على شكل جاليات صغيرة داخل مدن أو قلاع، لكنهم لم يتمتعوا فيها بالأمان بسبب الهجمات الإسلامية المتوالية عليها، لذلك فضّل بعضهم العودة إلى بلاده. كما ضم المجتمع الشامي فئات دينية ومذهبية متعددة، كمذهب أهل السنة والجماعة وهو المذهب السائد في البلاد بصورة عامة. ومن الفئات الدينية التي ضمها المجتمع المحلي أهل الذمة واليهود والنصارى، وقد وصف ابن جبير كنيسة لهم داخل دمشق، وأشار إلى موقف المسلمين منهم[٢]، كما تحدث ابن جبير عن العلاقات الحسنة بين مسلمين ونصارى جبل لبنان وإيواء هؤلاء لبعض المسلمين المنقطعين[٣].

أمّا النظام الاجتماعي الذي سيطر على البلاد هو النظام الإقطاعي، وهو نظام غريب وطارئ، بدأ تطبيقه منذ أيام السلاجقة واستمر طوال عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك، وأدَّى هذا النظام إلى تنظيم عسكري قوي ودقيق، مكّن المسلمين من الصمود أمام فرسان أوروبا ونظمها العسكرية طوال زمن الحروب الصليبية[٤]. ومن آثار هذا النظام، تقسيم المجتمع الإسلامي إلى طبقات، تقوم فيها

---

(١) رمضان، أحمد، المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، الجهاز المركزي للكتب الجامعية، القاهرة، ١٩٧٧، ص٤٩ – ٦٤.

(٢) ابن جبير، رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت، ١٩٨٠، ص٢٥٥.

(٣) المرجع نفسه، ص٢٥٩.

(٤) رمضان، المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، ص ٨٥ – ١١٦.

سدود وحواجز، وأولى تلك الطبقات: طبقة الأمراء وأصحاب الاقطاعات والتجار والأثرياء والأمراء والسلاطين، والطبقة الثانية: طبقة رجال الدين الذين لقبّهم المؤرخون، بأهل العمامة، قاموا بدراسة أمور الدين وفقهها، ونالوا مكانة عند الحكام، أما الطبقة الثالثة: طبقة عامة الفلاحين وصغار التجار والصناع الذين يعملون، إما أجراء في الأرض أو كادحين في خدمة القصور وعمل السلاح وإعداد آلة الحرب(١).

ومن مساوئ ذلك النظام الإقطاعي الطبقي، أن توزيع الثروة في المجتمع لم يكن معتدلاً، وهذا كان له أثر بالغ في شيوع الفساد الخلقي، كما كان طبيعياً أن يظهر أثر ذلك في أدب العصور، لذلك تذمر القاضي الفاضل(٢) في رسالة أرسلها إلى السلطان إلى السلطان صلاح الدين، شرح فيها حالة الفساد عند المسلمين في ذلك العصر فيقول: "والمملوك ينهي إلى الله تعالى لا ينال ما عنده إلا بطاعته ولا تفّرج الشدائد إلا بالرجوع إليه والامتثال لأمر شريعته، والمعاصي في كل مكان بادية والمظالم في كل موضع فاشية، وقد طلع إلى الله منها ما لا يتوقع بعدها إلا ما يستفاد منه"(٣).

انتشر التصوف في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية بصورة واضحة، وقد حظي التصوف باهتمام الحكام ورعايتهم، ووصف ابن جبير في رحلته الخوانق التي كانوا يقيمون فيها، وذكر أنها قصور مزخرفة(٤)، ووصف الصوفية بأنهم الملوك بهذه البلاد، لأنهم قد كفاهم الله مؤن الدنيا وفضولها، وأسكنهم في قصور تذكرهم

---

(١) سلام، محمد زغلول، الأدب في العصر الأيوبي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٧، ص٤٧.

(٢) هو عبد الرحيم بن علي بن السعيد اللخمي المعروف بالقاضي الفاضل، وزير من أئمة الكتّاب ولد بعسقلان بفلسطين سنة ٥٢٩هـ وانتقل إلى الإسكندرية ثم إلى القاهرة وتوفي بها سنة ٥٩٦هـ وكان من المقربين إلى السلطان صلاح الدين ولم يخدم بعده أحدا. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٦، ص١٥٦.

(٣) أبو شامة، الروضتين في إخبار الدولتين: النورية والصلاحية، ج٢، ص١٦٣ – ١٦٤.

(٤) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص٥٦. وانظر: أبو شامة، الرّوضتين في أخبار الدولتين: النوريّة والصلاحيّة، ج١، ص١٠، ٢٢، ٢٣.

قصور الجنان، فالسعداء الموفقون منهم قد حصل لهم -بفضل الله- نعيم الدنيا والآخرة، وقد أسهموا المتصوفة بقسط وافر للمشاركة في الأحداث الكبرى في بلاد الشام في القرن السادس الهجري، إذ كان لهم دور بارز عندما هاجم الصليبيون دمشق في حملتهم الثانية، فهب المتصوفة للدفاع عنها[١].

وقد عانت بلاد الشام في القرن السادس الهجري، الفقر الشديد والأوبئة الفتاكة وسنوات الجفاف، التي أدّت إلى غلاء الأسعار وفناء كثير من الناس، ناهيك عن الكوارث الطبيعية كالزلازل المتتالية التي كان من أعقابها انهدام الأسوار والقلاع والدور، إضافة إلى الحرائق، أما الغزو الصليبي فكانت له آثار واضحة في المجتمع الشامي، فقد ذكرنا أن الغزاة كانوا يعيثون في كل أرض يدخلونها.

فكان من الطبيعي أن يجري والزنكيون الأيوبيون كثيراً من الإصلاحات الاجتماعية، فقد ضبط عماد الدين زنكي الأمور، فحقق الأمن الشامل بحيث يعجز القوي عن المعتدي على الضعيف[٢] فقصد الناس بلاده واتخذوها دار إقامة[٣]، ونهج نور الدين سياسة العدل "مع أوامر الشرع ونواهيه، وألزم بذلك أتباعه وذويه[٤] ورفع عن الناس الأثقال فلم يترك بلد من بلاده ضريبة ولا مكساً ولا عشراً إلا وأطلقه" فأمنت بلاده مع سعتها، وقلْ المفسدون ببركة العدل وإتباع الشرع المطهر[٥]. أما صلاح الدين فقد أجرى إصلاحات واسعة، واسقط المكوس عن الرعية ولم يقر من الضرائب إلا ما هو شرعي.

ومن الجدير بالذكر، أن ندرك إحالة كل من نور الدين زنكي، وصلاح الدين الأيوبي، بالحرب التي شنها الإفرنج، والتي مثّلت تحدياً كبيراً للمسلمين وتهديداً للإسلام، وإن المواجهة تقتضي بث الروح الإسلامية في نفوس الأمة، لذا اهتّم القادة

---

(١) ابن منقذ، أسامة، كتاب الإعتبار، تحرير: فيليب حتي، جامعة برنستون، ١٩٣٠، ص١٢٢، وانظر: أبو شامة، الرّوضتين في أخبار الدولتين: النوريّة والصلاحيّة، ج١٠، ص٢٢، ٢٣.

(٢) أبو شامة، الرّوضتين في أخبار الدولتين: النوريّة والصلاحيّة، ج١، ص١١٠.

(٣) المرجع نفسه، ج١، ص١١١.

(٤) المرجع نفسه، ج١، ص١٤.

(٥) المرجع نفسه، ج١، ص١٦.

بإقامة المدارس والمساجد والخوانق والرباطات، وترميم ما هو قائم منها وقد قدّم ابن جبير وصفاً تفصيلياً لذلك، إذ كان يقف في كل مدينة يزورها عند مساجدها ومدارسها وربطها وأسواقها ومزاراتها، ومزاياها الدينية والتاريخية والطبيعية[١]. فقد أعاد نور الدين بناء مسجد حلب بعد الحريق الذي دبّ فيه، وقدّم وصفاً دقيقاً له ورسم صورة جميلة لمنبره فقد "ارتفع كالتاج العظيم على المحراب وعلا حتى اتّصل بسمك السقف، وقد قوّس أعلاه وشرّف بالشرف الخشبية..... وهو مرصّع كله بالعاج والأبنوس....."[٢] وقال أيضا: "هذا الجامع من أحسن الجوامع وأجملها"[٣]. ووصف ابن جبير الجامع الأموي بدمشق، وصفاً بديعاً كما وصف حجرة الساعة الدقاقة به، وسمّاها المنجابة كتسمية أهل الأندلس في ذلك العصر للساعات الدقاقة التي اشتهرت بها بلادهم، كما عمد إلى وصف موقعه ومساحته وأبوابه وشمسيّاته وقبابه وصحنه وبلاطه وأعمدته وجدرانه وزخرفته، غير أن الملفت لنظر ابن جبير تعدد أوجه النشاطات فيه، وتعليم القران الكريم للصبيان، حيث يستند المعلمون إلى سواري المسجد، ويجلس أمام كل واحد منهم صبي يلقنّه القرآن، وقد كان لهذه السواري وقف معلوم يأخذه المستند إليها للمذاكرة والتدريس، وللصبيان أيضاً على قراءتهم جراية معلومة[٤]. بالإضافة إلى الحلقات الجماعية التي كانت تعقد لقراءة أجزاء من القرآن الكريم كالمجتمع السبعي والمجتمع الكوثري، وكانت أورقة المسجد وساحاته ومرافقه تعجّ بالعبّاد والمتعلمين والمنقطعين للطلب، ومن هذه المرافق التي أُعجب بها ابن جبير، وجعلها من مآثر نور الدين وصلاح الدين: مرافق الغرباء، الزوايّا، الصّوامع، المقصورات، صحنُ المسجد، السّقايات.

ومن العناصر التي اهتّم بها ابن جبير، وهو يصف مظاهر العمران الاجتماعي في بلاد الشام، الأسوار والقلاع وما توفره للمدن من قوة ومنعة، ولعل

---

(١) الرقب، شفيق، دراسات اجتماعية في الأدب الأيوبيّ والمملوكيّ، دار يافا العلمية، عمان، ٢٠٠٩، ص٢٩.

(٢) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص٣١٧.

(٣) المرجع نفسه، ص٣١٦.

(٤) المرجع نفسه، ص٣٤١.

اهتمامه بها يعود إلى أجواء الحرب المسيطرة على المنطقة آنذاك، فيسترسل ابن جبير بوصف قلعة حلب ويصوّر حصانتها الطبيعية وإحكام بنائها وعلوها، فهي "شهيرة الامتناع، بائنة الارتفاع، معدومة الشبّه والنظير في القلاع [١]. أما سور القلعة فيضم أبراجا منتظمة، فيها الغرف الشاهقة الحصينة "قد تفتّحت كلها طيقانا وكل برج منها مسكون وداخلها المساكن السلطانية والمنازل الرفيعة والملوكية"[٢]. ولا نغفل ما ذكره ابن جبير عن أسوار حمص، فوصف قدمها، وصلابة حجارتها وإحكام بنائها وقوة أبوابها، فهي" غاية العتاقة والوثاقة، مرصوص بنائها بالحجارة الصّم السود، وأبوابها أبواب حديد، سامية الإشراف، هائلة المنظر، رائعة الإطلال والأناقة، تكتنفها الأبراج المشيدة الحصينة"[٣].

وعلى الرغم مما كان يعانيه ديار الشام من أزمات اقتصادية، وكوارث طبيعية، وحروب صليبية، إلا أن هذا لم يفقد المدن الشامية نشاطها وازدهارها الثقافي والفكري، كما لم يمنع من ظهور حركات البعث والعلم والأدب، الذي ازدهر ازدهاراً ملحوظاً آنذاك، وقد اعتمدت حركة البعث العلمي في ذلك العصر على التراث الإسلامي الزاخر، بهدف إحياء شعائر أهل السنة، فاهتموا بالقرآن الكريم وتفسيره، وبالحديث الشريف وجمعه وحفظه وشرحه[٤].

وقد تبنى الأيوبيون والزنكيون الحركة الفكرية في القرن السادس الهجري، وكانت من أهم الظواهر الثقافية في هذا العصر انتشار المدارس وكثرتها بهدف تثبيت الهوية الإسلامية لهذه البلاد، وكان لكل مدرسة من هذه المدارس مكتبة خاصة، تضم الكتب في شتى العلوم والمعارف، وشغف أهل ذلك العصر، باقتناء الكتب، مما أدَّى إلى ازدهار المكتبات الخاصة مثل مكتبة أسامة وابن العديم وابن القفطي، واهتم الأمراء في قصورهم بإفراد جناح خاص للكتب فيها ومن أبرزها

---

(١) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص ٣١٤.

(٢) المرجع نفسه، ص ٣١٥.

(٣) المرجع نفسه، ص٣٢٣.

(٤) سلام، الأدب في العصر الأيوبي، ص ٧٦.

مكتبة الملك المنصور صاحب حماة فقد جمع فيها من كتب العلوم عدداً كبيراً[١]. وقد وصف ابن جبير في رحلته المدارس التي كانت في المدن التي حلّ بها، مثل مدينة دمشق وحمص وبعلبك ومنبج، ووقف وقفات مطولة عند المدارس في دمشق، ووصف الأجواء العلمية المريحة التي كانت سائدة فيها، ومنها مدرسة نور الدين زنكي، إذ وصف بعض مرافقها وعدّها من أحسن مدارس الدنيا منظراً، "وهي قصراً من القصور الأنيقة ينصب فيها الماء في شاذروان وسط نهر عظيم، ثم يمتد الماء في ساقيه مستطيله إلى أن يقع في صهريج كبير وسط الدار، فتحار الأبصار في ذلك المنظر"[٢].

ووصف ابن جبير مدرسة للحنّفية الذي اتصّل بالجانب الغربي من جامع حلب، تناسب الجامع حسناً وإتقان وصنعة، فهما في الحسن روضة تجاور أخرى، وهذه المدرسة من أحفل ما شاهدناه من المدارس بناءً وغرابةً وصنعةً، ومن أظرف ما يُلحظ فيها أنّ جدارها القبلي مفتّح كلّه بيوتاً وغرفاً ولها طيقان يتصل بعضها ببعض، وقد امتد بطول الجدار عريش كرمٍ مثمرٍ عنباً، فحصل لكل طاق من تلك الطيقان قسطها من ذلك العنب متدلياً أمامها، فيمّد الساكن فيها يده ويجتنيه متكئاً دون كلفة ولا مشقة"[٣].

ولم يقتصر الأمر على المدارس في التعليم، وإنّما وجدت حلقات العلم التي كانت تعقد في المساجد، فقد كان الجامع الأموي بدمشق يزهو بحركات علمية في كل زاوية من زواياه وفيه حلقات لتدريس الطلبة، وللمدرسين فيه إجراء واسع[٤]. أما شيوخ تلك المدارس فهم أساس الحركة الثقافية، إذ كانوا يشدون الرحال إلى مختلف المراكز العلمية في أنحاء العالم الإسلامي، فيسافرون إلى العراق ومصر وخراسان وما وراء النهر ويحصّلون في رحلاتهم تلك علوماً كثيرة[٥]، وكانت هذه المدارس تدرّس الفقه،

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج٤، ص٨٠.

(٢) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص٣٥٨.

(٣) المرجع نفسه، ص ٣١٧.

(٤) المرجع نفسه، ص ٢٤٤.

(٥) الصفدي، خليل بن إيبك، الوافي بالوفيات، مكتبة احمد الثالث، بيروت، (د.ت)، ج٢٣، ص١٢، وانظر: الكتبي، محمد بن شاكر، عيون التواريخ، تحقيق: فيصل السامر ونبيلة عبد المنعم، وزارة الإعلام العراقية، بغداد، ١٩٧٧، ج١٢، ص١٩٤.

والعلوم الشرعية، والأصول والنحو، فتنوعت بذلك مجالات الإنتاج الفكري آنذاك، واصطبغ هذا الإنتاج بروح العصر الذي غلب عليه طابع الجهاد[١]. لذلك اهتم المؤرخون المسلمون بتوثيق أحداث الصراع بين المسلمين والصليبيين، وكتابة السير لأبطال ذلك الصراع، كما عنوا بتاريخ البلدان الإسلامية وتبيان فضائلها ومكانتها الدينية للتأكيد على عروبتها وإسلاميتها ومن هذه المؤلفات "الفيح القسي في الفتح القدسي" و"البرق الشامي".

وكلاهما للعماد الأصفهاني و"تاريخ دمشق" لابن عساكر ومن الجدير أن نشير في هذا الموطن إلى ما قاله إحسان عباس بشأن الصورة الثقافية لهذا العصر، إذ أشار إلى ازدهارها في معظم النواحي الثقافية والسبب يعود إلى تعاظم الحس التاريخي بما ألف من كتب في التاريخ والتراجم ومن كتب في السير والسير الذاتية، وفي النحو والطب والعلوم الحكمية والفقه...."[٢].

وازدهر النشاط الاقتصادي في المدن الشامية، فقد ظلت قوافل التجارة تتردد بين المدن الشامية، وبين مدن الشام والعراق[٣] وبين المدن الإسلامية والمدن الخاضعة لسيطرة الفرنجة، وكانت هذه القوافل تحت الحماية العسكرية، فيرافقها الفرسان حتى تبلغ مأمنها[٤]. ففي بداية الحروب الصليبية كان الفرنج كثيري التعدي على القوافل التجارية الذاهبة أو الآتية بين دمشق ومصر، حتى استولى صلاح الدين على الكرك والشوبك، وأعاد الانتظام إلى هذه التجارة، وكانت قوافل التجار (البرجاسية) في مأمن من الحرب، فلا يتعرض لها المحاربون من المسلمين والفرنجة، وقد ذكر لنا ابن جبير في رحلته متعجباً فقال: "ومن أعجب ما يحدث به في الدنيا إن قوافل

---

(١) بدوي، أحمد أحمد، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، دار نهضة مصر، ط٢، ١٩٧٩، ص٤٠٦.

(٢) عباس، إحسان، تاريخ بلاد الشام في عهد الاتابكة والأيوبيين، منشورات لجنة تاريخ بلاد الشام، ١٩٩٨م، ص٣٢٨.

(٣) ابن منقذ، كتاب الاعتبار، ص١٨٢.

(٤) المرجع نفسه، ص٥٧، ٧٠، ٨٤، ٧٩، ١٨٢.

المسلمين تخرج إلى بلاد الإفرنج وسبيهم يدخل إلى بلاد المسلمين[١] وفي موطن آخر " ومن أعجب ما يُحدّث به أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين، وربما يلتقي الجمعان، ويقع المصاف بينهم ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم، دون اعتراض عليهم[٢].

ويستدل من رحلة ابن جبير، أن المدن الشامية التي زارها شهدت نشاطاً تجارياً واسعاً، فقد تحدّث عن الأسواق وكيفية بنائها وتصميمها، وإعجابه الكثيف بأسواق مدرسة حلب فالبلد "واسع الأسواق كبيرها، متصلة الانتظام، مستطيلة تخرج من سماط صنعة أخرى، إلى إن تفرغ من جميع الصناعات الكثيفة وكلها مسقّف بالخشب فسكانها في ظلال وارفه، فكل سوق منها تقيّد الأبصار حسناً وتستوقف المستوفر عجباً"[٣]. أما أسواق منبج "وسككها فسيحة متسعة، ودكاكينها وحوانيتها، كأنها الخانات أو المخازن اتساعاً وكبراً، وأعالي أسواقها مسقفةً، وعلى هذا الترتيب أسواق أكثر مدن هذه الجهات[٤].

وقد تفوقت التجارة الخارجية على التجارة الداخلية، والسبب في ذلك يعود إلى أن الفرنج كانوا يعتمدون على أساطيل المدن الإيطالية، فلم تكن هذه المدن ناقلة للسلع غرباً وشرقاً، وإنما كانت ذات حصص في المدن الواقعة تحت سيطرة الفرنج، وتتمتع بامتيازات متنوعة سواء إقليمية، أو في الميدان الحقوقي أو في مجال الإعفاء، فعلى سبيل المثال مدينة (جنوه) تتمتع بامتيازات وتقدم خدماتها للصليبيين، أما التجارة الداخلية فقد قامت بالعديد من الإصلاحات لطرق القوافل، وإنشاء الخانات التي يأوي إليها التجار والمسافرون، وقد أعجب ابن جبير بحصانتها، وشبهها بالقلاع في المنعة والوثاقة[٥]، ولعل أبرز هذه الخانات التي ذكرها ابن جبير، خان

---

(١)ابن منقذ، كتاب الاعتبار، ص٢٧١.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٦٠.

(٣) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص ٣١٦.

(٤) المرجع نفسه، ص ٣١٢.

(٥)المرجع نفسه، ص ٣١٨.

بناه صلاح الدين الذي يعرف بـــ (خان السلطان)، وقد وصف ضخامته ومنعتــه وحسن عمارته وتوفر أسباب الراحة فيه[١].

أمَّا الزراعة فقد استمرت في الشام كما كانت في العصور السابقة، إذ ازدهرت الزراعة في الأجزاء الشمالية من بلاد الشام، ولاسيما أنها تتميز بخصوبة أراضــيها وغزارة الأمطار، إضافة إلى وفرة الأيدي العاملة من الفلاحين (العــرب والأرمــن والروم)، الذين كانوا يعملون في الإقطاعيات الواسعة لقاء أجر معلوم[٢]. ولعل مــن أبرز المحاصيل الزراعية التي كانت تزرع في المروج الواسعة من شمال بلاد الشام آنذاك الزيتون والقطن والكرمة وأنواع الفواكه والقمح[٣] بالإضــافة إلــى البســاتين الصغيرة داخل القرى والمدن، والغابات الكثيفة التي كانــت تســتغل فــي صــناعة الأخشاب[٤] وقد تضمن المشهد الطبيعي لبلاد الشام وصفاً للمناطق التي زارها ابــن جبير، فقد أعجب بالمرأى العام لمنبج، ووصف بساتينها التي تحف برائحة الأزهار، فيقول: " صقيل، ومجتلاها جميل، ونسيمها ارج النشر عليل، نهارهــا ينــدى ظلّــه وليلها كما قيل فيه سحر كلّه[٥].

لذلك رسم لنا ابن جبير البساتين الكثيفة ذات الثمار المختلفة والميــاه الغزيــرة المنبثقة من باطنها، وفي ذلك يقول: "تحف بغربيها وبشرقيها بساتين ملتفة الأشجار، والماء يطرد فيها ويتخلل جميع نواحيها، وخصّ الله داخلها بآبــار معينــة، شــهديه العذوبة، سلسبيله المذاق، تكون في كل دار منها البئر، والبئران، وأرضها كريمــة، تُستنبط مياها كلها...."[٦]. ويستشف من رحلة ابن جبير في بلاد الشــام، ازدهــار الزراعة في بلاد المعرة، فهي " سواد كلها، ويتصل التفاف بساتينها وانتظام قراهــا

---

(١)ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص٣٢٥.

(٢) ابن منقذ، كتاب الاعتبار، ص ١٥٣، ٥٠، ٣١، ٨٢، ١٥١.

(٣) المرجع نفسه، ص ٤٠، ٤٣، ١٥١، ١٥٧.

(٤) المرجع نفسه، ص ١٤٢.

(٥) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص٣١١ .

(٦) المرجع نفسه، ص ٣١١.

مسيرة يومين، وهي أخصب بلاد الله وأكثرها أرزاقاً[١]. واحتفل ابن جبير بالتوطئة لمدينة دمشق، فوصف مشهدها الطبيعي في صورة تتداخل فيها الألوان والأشكال والحركات في سياق جميل يشخص المدينة في صورة عروس تبرجت للناظرين، فهي " جنة المشرق، ومطلع حسنه المؤنّق المشرق، وهي خاتمة بلاد الإسلام التي استقريناها، وعروس المدن التي اجتليناها، وقد تحلت بأزاهير الرياحين، وتجلت في حلل سندسية من البساتين، وحلت من موضوع الحسن بمكان مكين، وتزينت منصتها أجمل تزيين..."[٢].

وقد نعمت بلاد الشام بثروة حيوانية كبيرة في القرن السادس الهجري، وهي تشتمل الحيوانات الداجنة من خيل وبغال وبقر وأغنام والطيور البرية، وقد ذكر أسامة أنواعاً كثيرة من الحيوانات البرية في معرض حديثه عن تجاربه في الصيد في شيزر وغيرها، وغالباً ما كانت تتكاثر هذه الحيوانات في الأزوار المنتشرة حول الفرات[٣]، ولم يكن الصيد المصدر الوحيد للثروة الحيوانية، وإنما كان للغنائم التي كان يحرزها المسلمون من الفرنجة مصدراً ثانياً لها، فعندما دخل المسلمون مرج افامية ساقوا منه " غنيمة كبيرة من الجواميس والبقر والغنم[٤] وذكر أسامة حكايات متفرقة تبين اهتمام القوم بتربية الحيوانات واعتنائهم بها، فقد وصف أسامة مشهدا بحماة "وقد حضر القراء والمكبرون وخلق عظيم من أهل البلد " فسأل صاحب حماة عن الميت، فأخبره " أنّه الباز اليحشور"[٥]. وأنّه عمل له تابوتاً وجنازة وقبراً لأنه كما يقول يستحق ذلك، وفي موطن آخر يذكر أسامة أنّه كانت في دارهم " فهده لها جارية تخدمها، وتسرح جسمها بالمشط ولها في جانب الدّار قطيفة مطوية تحتها حشيش يابس....." [٦].

---

(١) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص ٣١٩.

(٢) المرجع نفسه، ص ٣٢٧.

(٣) ابن منقذ، الاعتبار، ص ١٠٦، ٢٢٢، ٢٢٦.

(٤) المرجع نفسه، ص ٥٨، ٧٦.

(٥) المرجع نفسه، ص ٢٠٦.

(٦) المرجع نفسه، ص ٢٠٨.

ولابد للإشارة إلى العلاقات الاجتماعية التي كانت سائدة بين المسلمين والفرنجة آنذاك، إذ إن الاختلاط بين الفئتين في بعض المدن كان سبباً لاطلاع كل من الفريقين على بعض عادات الآخر، وتحدث شفيق الرقب عن نمطين من هذه العلاقات، الأول قام بين الفرنجة والمسلمين الذين لم تخضع ديارهم لسيطرة الغزاة، والثاني نشأ بين الفرنجة والمسلمين في البلاد الإسلامية المحتلة(١)، بيد إن النمط الأول كان يتخذ صورة العلاقات الشخصية أحياناً، والعلاقات الشخصية أحياناً، والعلاقات التجارية من جهة أخرى، ورابطة الزواج المتبادل من جهة ثالثة، وقد ذكر أسامة بن منقذ من خلال الزيارات المتكررة إلى الأراضي التي سيطرت عليها الفرنجة، إذ أتاحت له أن يتجول فيها، ويخالط ناسها، ويقيم علاقات شخصية مع فرسانها، ولعل من هذه العلاقات الشخصية أن فارساً إفرنجياً لازمه وأنس به وانعقدت بينهما المودة والمعاشرة وصار الفارس يدعوه "أخي"(٢)، وكذلك فقد طلب الفارس من أسامة أن يرسل معه ابنه إلى أوروبا، " يبصر الفرسان ويتعلم العقل والفروسية "(٣).

ويستشف من العلاقات بين المسلمين والفرنجة، أنها لم تكن قائمة على الجوانب الشخصية فحسب وإنما كان للتجارة دور في ذلك، وقد ذكرنا سابقاً إن الطرق بين المدن الإسلامية والبلاد التي تخضع لسيطرة الفرنجة سالكة، فقد كان الرعايا والتجار من الفريقين يدخلون البلاد دون أن يعترض طريقهم أحد، وكان لاتفاقيات الهدنة التي كانت تعقد بين المسلمين والفرنجة، أثار واضحة وراسخة في تنظيم هذه العلاقات، ومن هذه الهدنة تلك التي أبرمت بين الظاهر بيبرس وملكة بيروت سنة ٦٦٧هـ/١٢٦٨م(٤)، ومما نصت عليه الهدنة أن يكون جميع المتمردين من البلاد التي تشتملها الهدنة " وإليها آمنين مطمئنين على نفوسهم وأموالهم وبضائعهم من

---

(١) الرّقب، دراسات اجتماعية في الأدب الأيوبيّ والمملوكيّ، ص ٩٦ – ٩٧.

(٢) ابن منقذ، الاعتبار، ص ١٦٩.

(٣)المرجع نفسه، ص ١٦٩.

(٤) انظر نص الهدنة في: القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج١٤، ص٣٩– ٤٢.

الملكة فلانة وغلمانها، وجميع من في حكمها وطاعتها: براً وبحراً، لـيلاً ونهـاراً، ومن مراكبها وشوانيها.

أما الأراضي فقد كان المسلمون والفرنجة يستغلونها مناصفة، وغالباً ما تتوسط هذه الأراضي المناطق التي تخضع لسيطرة كل طرف، وقد اصطلح كتاب الدواوين آنذاك على تسمية هذه الأراضي "بلاد المناصفات"(١). ومن هذه الأرض تلـك التـي كانت تقع بين مدينة بانياس وحصن هونين الذي كان يقيم فيه الفرنجة، فقـد كانـت عمالة " تلك البطحاء بين الإفرنج والمسلمين، لهم في ذلك حد يعرف بحد المقاسمة، فهم يتشاطرون الغلة على استواء، ومواشيهم مختلطة، ولا حيـف يجـري بينهمـا فيها...."(٢).

أما رابطة الزواج المتبادل فقد كانت ممكنة الحدوث، لكن على قلة، فقـد ذكـر أسامة بن منقذ حادثة واحدة تمثل تزوج امرأة مسلمة من رجل إفرنجي، وكان للمرأة ابن من زواج سابق، فكانت تتعاون هي وابنها على قتل من يصادفونه مـن حجـاج الفرنجة، ولما ظفروا بالابن عاقبوه ثم سملوا عينيه(٣).

على إنّه يجب أن نتذكر أن عوامل الافتراق بين الفريقين كانت أقوى من عوامل التلاقي، إذ كان حاجز الدين واختلاف العادات والطبائع في مقدمتها، وعبّر أسامة بن منقذ عن ذلك بعبارة موجزة استوحاها من تجاربه مع الفرنجة حيث قال فيهم: "وهم جنس ملعون لا يألفون لغير جنسهم"(٤).

---

(١) انظر: حمادة، محمد ماهر، وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي، مؤسسـة الرسـالة، بيروت، ط ٣، ١٩٨٦، ص٢٦١، ٢٧٠، ٢٧٦، ٢٧٩، ٢٨٣، ٢٩١.

(٢) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص ٢٧٣.

(٣) ابن منقذ، الاعتبار، ص ١٣٩.

(٤)المرجع نفسه، ص ١٦٦ – ١٦٧.

الفصـــل الأول
مـــدح المدن ووصـــفها

١.١ مدح المدن ووصفها

يعالج هذا الفصل من الدراسة موضوع المكان وجماليته في الشـــعر، واقصـــد بالمكان أينما ورد (المدينة) ومن خلال الوقوف على الشعر المجموع للفتـــرة المحـــددة واستقرائه –القرن السادس والسابع الهجريين– تبين أن المدينة تشكل ظاهرة بارزة في الشعر هذه المرحلة، إذ تعاظم إحساس الشعراء الشاميين زمـــن الحـــروب الصـــليبية بالمكان، ولاسيما مدينة دمشق إذ قدّموها في صورٍ متعددةٍ تصف مدى تعلقهـــم بهـــا، وكأنهم يعبرون بطريقة غير واعية عن تشبثهم بأرضهم في ظرف تاريخي سعى فيـــه الغزاة إلى انتزاعها من أيديهم وتغيير وجهها الإسلامي.

لم يكن الشعراء الشاميّون زمن الحروب الصليبية بمنأى عن هـــذا الإحســـاس العام، فقد كان للأمكنة والمدن حضور واضح في أشعارهم، "فعلاقة الإنسان بالمكـــان حقيقة بالغة في القدم ووجوده مرتبط بالمكان، وإنه على قدر إحســـاس الإنســـان بأنـــه مرتبط بالمكان يكون إحساسه بذاته..... والإنسان لا يحتاج إلى رقعة جغرافية يعـــيش فيها، بل يميل كذلك إلى البحث لنفسه عن رقعة من الأرض، يضرب فيهـــا بجـــذوره وتتأصل فيها هويته"(١).

إن علاقة الإنسان بالمكان علاقة تلازمية تلاحميـــة، " فالإحســـاس بالمكـــان – الوطن– إحساس له أصالته في الوجدان البشري، لأن المكان يصبح هنا هوية تاريخية ووطنية ونفسية، وخصوصاً لأنه يمثل حلقة الوصل المشيمية برحم الأرض –الـــوطن– الأم، ويرتبط بوداعة وهناء الطفولة وذكريات وغراميات الصبا، ويـــزداد الإحســـاس بالمكان تجذراً وعمقاً، إذا ما تعرض المكان للخطر أو الضياع أو الانصهار"(٢).

---

(١) إبراهيم، نبيلة، خصوصية التشكيل الجمالي للمكان في أدب طه حســـين، مجلـــة فصـــول، العددان الأول والثاني، أكتوبر ١٩٩٠م، ص ٤٩.

(٢) المغيض، تركي، جماليات المكان في شعر عرار، مجلة مؤتة للبحوث والدراسات، مجلد٤، العدد٢، ١٩٨٩، ص١٩٠.

ومن العدل بالمكان أن نذكر هنا تأصل العلاقة وارتباطها بين شعراء الشام وبين المكان –الوطن– الذي تعرض إلى حملات صليبية عاتية، اجتاحت البلاد ومدت أنامل طغيانها عليهم، وانصهرت البلاد وضاعت، فكان من الطبيعي إن ينهض الشعراء ويستنطقوا بما يحمله إحساسهم الفطري والغريزي بانتمائهم للوطن، فالمكان بالنسبة لهم هو المأوى ومسرح الأحداث حتى غدا يأخذ طابعا مقدساً لأن العلاقة بينهما أصبحت متجذرة.

وقد أثر هذا الحدث في الشعراء المعاصرين له، وأسال قرائحهم فبدا الشعراء يشيدون بفتوحات القادة الإبرار ويصورون المدن الإسلامية ويصفونها بأجمل الصفات، وتتكشف جماليات المكان عند الشعراء من خلال ما تعكسه من علاقات بين الناس، فإذا انتقل الإنسان من مكانه المألوف إلى آخر نقيض له في المناخ والطبيعة، فإن عواطفه اتجاه الجديد تتغير وتكتسب ملامح سلبيةٍ وخاصة إذا فقد في هذا المكان الجديد ما كان يحقق له ذاته، ولو كان الجديد جميلا فانه يكتسب صفات الإنسان ويتلون بلونه وكأنه يشاركه أحزانه....."[1].

ويستشف من خلال طرح العلاقة بين المكان والشعراء، وخاصة عند الشعراء الشاميين عصر الحروب الصليبية، أنهم تمثلوا هذه الغاية، فتارة نراهم يرثون المدن التي تسقط في أيدي الصليبيين، مقدمين تفاصيل دقيقة للأماكن التي وصفوها وخاصة عندما يرون وطنهم يتلاشى ويستلب أمام أعينهم، بيد أنهم لا يستطيعون فعل شيء، فترتجل ألسنتهم بمحاكاة أجمل القصائد والأشعار التي تصور إحساسهم المشوب بالحزن والألم والحسرة على ضياع بلادهم بلاد الشام. وتارة أخرى نراهم قد أعجبوا بهذه المدن وعبروا عن حبهم وإعجابهم بها، فمدحوها وتغنوا بجمالها وتحدثوا عن فضائلها ومزاياها وصوروا بعض مظاهر الحضارة والعمران فيها، وعقدوا مقارنة بينها وبين البلدان الأخرى، وقد حظيت دمشق

---

(١)الشوابكة، محمد، دلالة المكان في مدن الملح لعبد الرحمن منيف، مجلة أبحاث اليرموك، مجلد٩، العدد٢، ١٩٩١، ص ١٩.

بنصيب كبير من هذا المدح والوصف، لعل هذا يعود إلى أنها كانت حاضرة الشام التي يتوافد عليها الشعراء ويليها في ذلك مدينة حلب.

بيد أن العلاقة بين الشعراء والمدينة قد ساءت، فاحتل شعر الهجاء حيزاً كبيراً من شعر القرن السادس الهجري، وذلك لما جرى من إحداث جسام، وكان مجالاً رحباً لأن يزدهر هذا الفن وتتنوع أغراضه، ولم يكن هجاء المدن ظاهرة جديدة على شعر هذه الفترة، إذ عرف واشتهر في عصور سابقة[١] واستمر الشعراء نهج سابقيهم بل أكثروا من القول فيه بصورة واضحة.

ويتضح مما سبق أهمية المكان على أنه ظاهرة في الشعر،فلم يغفل شعراء الشاميّون من ذكر المكان بوصفه مسرحاً للمعارك والحروب والأحداث التي حدثت آنذاك، فالمكان "يمثل مستودعا لهذه الذكريات ويظل يوحي للإنسان بالفعل المبدع ويمده بالشحنات النفسية والوجدانية التي تعيد له توازنه النفسي، في حالة فقدان ذكرياته مع المرأة أو في حالة حدوث شرخ أو خلخلة في بناء النظام النفسي الداخلي (المزاج) لأي سبب ما"[٢].

وقد استدل النقاد الحديثون على ضرورة ارتباط المكان بأي عمل أدبي، فها نحن نرى باشلار قد دعا إلى نفي "الأصالة عن العمل الأدبي إن لم يرتبط بالمكان، فالعمل الأدبي حين يفتقد إلى المكانية فهو يفتقد خصوصيته وبالتالي أصالته....."[٣].

وبعد،،،،

فإنّ ما سأقدمه لاحقا يمثل رؤية لظاهرة المدينة، في الشعر الشامي في القرنين السادس والسابع الهجريين، إذ تعمّقت جذور المدينة في وجدان الشاعر وارتبط بها، وأصبح يجمعها علاقات وصلات حميمة، فتارة يدفعه الحنين إليها ورثائها، وتارة أخرى نراه قد ذمها وهجاها ونفر منها لأسباب خافية في ذات

---

(١) حسين، محمد محمد، الهجاء والهجاؤون في صدر الإسلام، ط٢، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٦٩م، ص٤٠.

(٢) مغيض، جماليات المكان في شعر عرار، ص١٩٧.

(٣) باشلار، جاستون، جماليات المكان، ترجمة: غالب هلسا، دار الجاحظ للنشر، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٨٠، ص٩.

الشاعر، وتارة ثالثة نراه يرسم لنا لوحة جميلة للمدينة بريشته الخاصة فيضفي عليها ألوانا بديعة، وفي كل الأحوال عبر الشعر الشامي في معالجته لهذه الظاهرة عن الذوق الرفيع الذي واكب التطور الحضاري والفكري الذي وصلت إليه بلاد الشام.

١.١.١ مدح المدينة الإسلامية

يقصد بهذا النوع من أنماط الشعر، تركيز الشعراء على إبراز المدينة بجماليتها الطبيعية وتفاصيلها من حيث الوصف المتناسق، وما تشتمل عليه من جنان وبساتين وقصور وانهار وقرى وجبال وهواء عليل، ولم يغفلوا عن ذكر المعالم الحضارية والمعمارية كهندسة البناء ورسومها وزخارفها. ويضيف شفيق الرقب في معرض حديثه عن مدح المدن بقوله: "نمط فريد من المدح وربما كان صورة من صور الحديث عن فضائل البلدان التي كثر التأليف فيها في عصر الحروب الصليبية، لذا فقد عني الذين اهتموا بالتأليف في الفضائل بإيراد الأشعار التي قيلت في المدينة التي يتحدثون عنها...."(١).

والأشعار التي قيلت في مدح المدن كثيرة، ولكنّها لم تتميز بالاستقلالية عن العناصر البنائية للقصيدة، فإطلالة المدينة في القصيدة العربية القديمة، كانت تتسم بظلال خافته باهته تأتي عرضا أثناء المدح أو وصف الناقة، ولعل ذلك يعود إلى طبيعة الحياة البدوية التي لا تركن إلى الاستقرار. ومن هنا كان الشاعر منهمكاً في وصف الطبيعة ومشاهدها ذات المساس المباشر بحياته ومستقبله، فوصف الليل والبرق والمطر والأطلال والناقة والممدوح والصحراء، وحينما نستعرض دواوين الشعراء من العصر الجاهلي إلى العصر الأموي، فإننا لا نجد قصيدة متكاملة في رصد صورة المدينة ووصف معماريتها وأبعادها الحضارية، بل نجد مقتطفات هنا وهناك وشذرات متناثرة في ثنايا القصيدة لا تشكل صورة معمقة عن رؤية الشاعر وموقفه للأبعاد الحضارية، فالشاعر ظل أسيراً للبداوة ومواكبة أثارها، فكان وصفه تمثيلاً لهذه البيئة وتعبيراً عن صدق انتمائه لها، أما في العصر العباسي فقد تشكلت

---

(١) الرّقب، الشعر العربي في بلاد الشام في القرن السادس الهجري، ص٢٨٨.

صورة المدينة على أنها ظاهرة حضارية، يرصدون جماليات المكان لينطق عن التطور الحضاري الذي شهده العصر، وهذا التطور الحضاري الذي ميز العصر العباسي كان له الأثر الكبير في صقل الذوق العام وتهذيبه، فانعكس ذلك على ذوق الشعراء فأبعدهم عن الصحراء وبداوتها وجعلهم ملتصقين بالحياة الحضارية الجديدة المستقرة في المدن والقصور(١).

أما في القرنين السادس والسابع الهجريين، فقد كثر الحديث عن المدينة بقصائد شعرية متكاملة البناء، ويعود ذلك إلى حنين الشعراء الشاميّن إلى المدينة فتشوقوا إلى جنانها وبساتينها ونباتاتها وأزهارها وأجوائها الطبيعية، فرسموها بأبهى الصور الجميلة، كما لم يغفلوا عن تصوير العمارة العربية الإسلامية، " فلابد من المكانية في العمارة، فالإنسان كان ومازال في حاجة مستمرة للسكنى في مواجهة الكون، وللتعامل مع الجمال الذي يثير في النفس عاطفة الحب، وكل ما هو رقيق وناعم وواضح اللون وساطع البريق.... وأنه كان في الوقت نفسه في حاجة إلى ما يعرف بالجليل الذي يتميز بالفخامة والسمو... والتماسك أمامه بحيث يثير في النفس عاطفة الإعجاب.... كما أنه لابد من الشعر للإحساس بالزمن، ولمواجهة النثرية والفوضى والدخول في عالم روحي موقع، مع ملاحظة أن هذا الجانب من الشعر كان مستنداً أساساً على العمارة..."(٢).

وإذا كانت الطبيعة عموماً والمدينة على وجه الخصوص قد تميزت بمناظرها الخلابة الجميلة وفنها المعماري، فأنها شكلت ميداناً فسيحاً للشعراء ينهلون من ينابيعها ويتجولون بين أحضانها، فكانت بحق مصدر إلهامهم، فرسموا لوحات شعرية نابضة بالحيوية ومتدفقة بالحياة، ليتحول الشاعر إلى عاشق لجماليات المدينة منصهراً في محاسنها ومفاتنها، ومن هؤلاء الشعراء: ابن منير الطرابلسي (٥٤٨هـ)،

---

(١) البكور، حسن فالح حسين، المدينة في الشعر العباسي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، رسالة دكتوراة غير منشورة، جامعة اليرموك، الأردن، ١٩٩٩، ص١٥.

(٢) بدوي، عبده، التقاء العمارة الإسلاميّة بالشعر مع تطبيقات على الشعر الحديث، دار الهلال، القاهرة، ١٩٩٧، ص٤٥

ابن الدهّان الموصلي (٥٨١هـ)، فتيان الشاغوري (٦١٥هـ)، وابن عقيل الزرعي (٦٢٢هـ) وابن عنين (٦٣٠هـ).

وقد توقف الشعراء الشاميون طويلاً عند المناظر الطبيعية، كالرياض والبساتين والبرك والربيع، وتغنوا بجمال أزهارها وثمارها، حتى غدا إنتاجهم الشعري مرآة تعكس ما تتميز به المدينة من جماليات الطبيعة، تتآلف معاً لتشكل باقة من الزهر تعبر عن رهافة حس الشاعر وذوقه الرفيع، وهذا ما نراه عند عرقلة الكلبي[١] إذ أعرب عن افتتانه بمدينة دمشق وابتهاجه بجمالها لاسيما في فصل الربيع[٢]:

هذا هو الزمنُ البديعُ الموُّنقُ ... والعِيشَةُ الرَّغْدُ التي هي تُعْشَقُ
فعلامَ تصحو والحَمامُ كأنها ... سَكَرى تُغنّي تارةً وتصفّقُ
وتلوم في حبّ الديار جَهالةً ... هيهات يسلوها فؤادٌ شَيِّقُ
الشام شامةُ وَجْنةِ الدنيا كما ... إنسانُ مقلتها الغضيضةُ جِلّقُ
من آسِها لك جَنَّة لا تنقضي ... ومِن الشقيق جهنَّمٌ لا تَحْرِقُ
سِيمَا وقد رقمَ الربيعُ ربوعها ... وَشْياً، به حَدَقُ البرايا تَحْدِقُ
في نَيْرَبٍ[٣] ضحكت ثُغورُ أَقاحهِ ... لما بكاه العارضُ المُتَأَلّقُ

يرسم الشاعر صورة جميلة لمدينة دمشق "فالشعر فن اكتشاف الجانب الجمالي والوجداني من الحياة"[١] فهذه المدينة جنة تنتشر فيها الأزهار والورود

---

(١) هو أبو الندى حسان بن نمير بن عجل الكلبي، شاعر مستطرف الهجاء، ولد سنة ٤٨٦هجري – ٥٦٧هجري، شاعر من الندماء كان من سكان دمشق واتصل بالسلطان صلاح الدين الأيوبيّ فمدحه ونادمه ووعده السلطان إن يعطيه إلف دينار إذا استولى على الديار المصرية، فلما احتلها أعطاه إلفين فمات فجأة قبل إن ينتفع بفجاة الغنى، انظر: الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء الشام، ج١، ص١٧٨.

(٢) الكلبي، العرقلة، ديوانه، تحقيق: أحمد الجندي، دمشق، ١٩٧٠م، ص ٦٨، انظر: الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء الشام، ج١، ص٢١٧.

(٣) نيرب: قرية مشهورة بدمشق على نصف فرسخ في وسط البساتين. انظر: الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء الشام، ج١، ص ١٩٨.

والرياض التي تفوح منها الروائح الزكية، فإذا كانت دمشق تشكل مكاناً جمالياً، فإن الإنسان يحس بأن العيش فيها رغد، فصورة الربيع هنا تكتسب قيماً ومعاني جميلة، فهو عند الشاعر مصدراً من مصادر الأمن والاستقرار، ورغد العيش والجمال والحيوية والحركة والنشاط، حتى تبدو الشام في ناظري الشاعر شآمة في وجنة الدنيا، بل تغدو هذه الديار جنة يعيش الشاعر في نعيمها، ويمتّع ناظريه بمواطن الجمال فيها.

ونراه في قصيدة أخرى يتغنى بجماليات مدينة دمشق ويحن إليها[٢]:

دمشقُ حُيِّيتِ مِنْ حَيٍّ ومن نادِ وحبّذا حَبّذا واديك من وادِ

ليس النَّدامى نَدامى حين تَنْزِله يَعُلُّهم شادِن كأساً على شادِ

يا غادياً رائحاً عرّج على بردى وخلنّي من حديث الرائح الغادي

تستحوذ مدينة دمشق على اهتمام العرقلة، فهو يتشوق إلى واديها، وقد فاق هذا الوادي في نظر الشاعر الأودية الأخرى، فلا يملك إلاّ أن يحييها ويفضّل معالمها على غيرها، ويدعو الآخرين إلى أن يعرجوا عليها، فهي دارٌ يجد فيها الإنسان الطمأنينة والسكينة.

وقد اقترن هذا الشعر الذي تغنّى فيه الشعراء بجمال البيئة الدمشقية، بالحنين إليها لا سيما لدى الشعراء الذين رحلوا عنها اختياراً أو اضطراراً، ومن هؤلاء الشعراء ابن عنين[٣] إذ قال قصيدة يحن فيها إلى دمشق، ويتشوق إليها كالعاشق

---

(١)عبد الصبور، صلاح، قراءة جديدة لشعرنا القديم، دار اقرأ، بيروت، ١٩٨٢م، ص ١٣.

(٢) الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء الشام، ج١، ص١٩٨.

(٣) أبو المحاسن شرف الدين محمد بن نصر الأنصاري الدمشقي، ولد سنة ٥٤٩هـ – ٦٣٠ هـ، نشأ بدمشق تتلمذ على يد أبو الثناء الشيرزي وأبو القاسم ابن عساكر، ابتدأ الشعر سنة ٥٦٥ وكان عمره ١٦عام، تميز شعراء الشام في عصره بقيام شعره على النظرة الهجائية ويلقب بشاعر الهجاء والسخرية، فلم يسلم سلطان أو وزير أو حاكم من لسانه، ربما يعود هذا إحساسه بالنقص لنشاته في أسرة ضئيلة لم تربه على فعل الخير، انظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٦، ص١٠٣

المفتون وهو في اليمن ويحيّي الملك العزيز سيف الإسلام[١] طغتكين بن أيوب صاحب اليمن سنة سبع وثمانين وخمسماية فيقول[٢]:

حنينٌ إلى الأوطان ليس يزولُ وقلبٌ عن الأشواق ليس يَحولُ
أبيتُ وأسرابُ النجومِ كأنها قُفولٌ تهادى إثَرهنَّ قفُولُ
دمشقُ، فبي شوقٌ إليها مبّرحٌ وإنْ لجَّ واشٍ أو ألحَّ عذولُ
ديارٌ بها الحصباءُ درٌ وتربُها عبيرٌ وأنفاسُ الشمالِ شمولُ
تَسلسلَ فيها ماؤها وهو مطلقٌ وصحَّ نسيمُ الرَّوضِ وهو عليلُ
فيا حبَّذا الروضُ الذي دونَ عَزَّتا[٣] سُحْيراً إذا هبَتْ عليه قَبولُ

يستهل ابن عين قصيدته المكونة من أربعة وثلاثين بيتاً وموضوعها الحنين إلى مدينة دمشق، باسم يدل على الأسى المقيم، والنوى الممض، والوفاء المفقود من قبل بني وطنه، فيتمنى أن يلثم تراب دمشق الحبيبة بعدما اضطر إلى تركها أكثر من عشرين عاماً، عاش فيها حالات التشوق والتذكر والحنين، ويؤكد ذلك استهلاله القصيدة بلفظ (الحنين إلى الأوطان) لينتقل من خلالها إلى حديث الأمل والرجاء الذي تفجّره في نفسه مغاني دمشق الجميلة، مقارناً بينها وبين ما هو جميل وساحر من مظاهر الطبيعة، فغدا الشاعر كالعاشق الذي يحن إلى أيامه فيها، وغدت دمشق الوطن الحبيب والأمل المنشود فيخاطبها ويناجيها ويبثها أشواقه العارمة التي استولت على كيانه على الرغم من فعل الوشاة وكيد العذال. ثم يتابع رسم لوحته

---

(١) الملك العزيز طغتكين، اخو السلطان صلاح الدين، بعثه أخوه إلى اليمن سنة ٥٧٩هـ فملكها وتوفي فيها سنة ٥٩٣هـ وله ترجمة في: ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء الزمان، ج١، ص٢٩٧.

(٢) ابن عنين، ديوانه، تحقيق: خليل مردم بك، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٩٥٩م، ص٦٩.

(٣) ورد اسم عزّتا في بعض كتب البلدان والتاريخ عرضا دون تعيين لمكانها والذي عين مكانها العمري. انظر: العمري، شهاب ابن فضل الله، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق: أحمد زكي باشا، دار الكتب المصرية القاهرة، ١٩٢٤، ج١، ص٨١. فقد ورد فيه " إن نهر الفيجة يحرج من جبل تحت حصن عزتا فهي على ذلك قرب قرية الفيجة.

الجميلة عندما وصف مفاتنها، فيرى أن رمادها درٌّ، وترابها مسك، ورياح الشمال الباردة فيها خمرٌ تسكر، وتنشر طيبها في كل مكان.

ويا حبذا الوادي إذا ما تدفَّقتْ جداولُ بانـاسٍ[١] إليه تسيلُ
وفي كبدي من قاسيونَ[٢] حزازةٌ تزولُ رواسيه وليس تزولُ
إِذا لاحَ برقٌ من سَنير[٣] تدافقتْ لسُحب جفوني في الخدود سيولُ

ثم يتابع الحديث عن رحلة الجمال والشوق التي يرسم خطوطها الجميلة وألوانها الفاتنة بردى وواديه، حيث تتدفق الجداول، لتتجمع مشكلة (نهر بانياس) أحد روافد بردى، ويعلق أحمد علي دهمان "أن الأرض الخضراء، المياه العذبة الباردة، النسيم العليل، ترسم حركة الطبيعة التي تزرع الحياة، والطيور الجذلى، التي تحوم فوق الماء، وقد أوقد سعير الحر أكبادها، فتلقي بنفسها على الماء، لعلها تستحم، وتنجو من العطش القاتل، فتفعل ما فعله ابن الأشعث الذي رفض مذلة الأسر على أيدي جنود الحجاج فألقى بنفسه من مكان عالٍ.... وفي ذلك استغلال ذكي وظريف لمجريات التاريخ، ترسمها ريشة فنان عبقري...."[٤].

وكم قائلٍ في الأرض للحُرّ مذهبٌ إذا جارَ دهرٌ واستحالَ مَلولُ
وما نافعي أنَّ المياهَ سوائحٌ عِذابٌ ولم يُنقعْ بهنّ غَليلُ
فإنَّ الفتى يلقى المنايا مكرَّماً ويكرهُ طولَ العمرِ وهو ذليلُ
تُعافُ الورودَ الحائماتُ مع القَذى وللقيظِ في أكبادهن صَليلُ

---

(١) باناس: من أنهار دمشق يفترق من نهر بردى في قرية دمر ويلفظه الدماشقية اليوم بانياس، ابن عنين، ديوانه، الحاشية رقم٨، ص٤٢.

(٢) قاسيون: جبل دمشق المشرف عليها من شماليها، ابن عنين، ديوانه، الحاشية رقم٣، ص٤٢.

(٣) وسَنير: جبال دمشق المقابلة للبنان منها جبل الثلج حرمون وجبل القلمون، ابن عنين، ديوانه، الحاشية رقم٨، ص٣٢.

(٤) دهمان، أحمد علي، ابن عنين الأنصاري وشعر الحنين والتشوق إلى دمشق الفيحاء، دراسة تحليلية، دار البعث، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، ص٣٧.

كذلك ألقى ابــنُ الأشــج[1] بنفســه ولم يرض عمراً في الإِســار يطــولُ

ويختتم القصيدة من خلال الربط بين المقدمة الطويلة التي أفردها للحديث عــن الحنين والتشوق إلى دمشق، والمدح الوجيز للملك العزيز، الذي يحميه مــن حــوادث الدهر ونائبات الأيام، ويبدد بعض غربته، لذلك برهنت هذه القصيدة –كغيرها من شعر الحنين– على أنّ ابن عنين أكثر الشعراء والأدباء حنيناً لدمشق، وبراً بها فهو "إذا مــا طوّحت به النوى إلى بلاد اليمن والهند وأقاصي الشرق، اشتد حنينه إلــى وطنــه، ومسقط رأسه ومرابع أنسه، وردد أسم مغانيه في قصيده وشعره..."[2].

أيَعَثَرُ بي دهري على ما يســوءني ولي في ذَرا الملكِ العزيــزِ مقيــــلُ
وكيف أخافُ الفقر أو أُحرمُ الغنــى ورأيُ ظهيرِ الدينِ فيَّ جميــــــلُ
مــن القــوم أَمّــا أحنــفٌ فمسَّــفهٌ لديــهم وأَمّا حــــاتمٌ فبخيــــــلُ
فتــى المجــدِ أمّــا جــاره فممنّــعٌ عــــــزيزٌ، وأَمّــا ضــدُّهُ فذليــــلُ
وأَمّــــا عطايــــا كفِــــه فســــوابغٌ عِذابٌ، وأَمّــا ظِلُّــهُ فظليــــــــلُ

أن الشاعر ابن عنين يمتلك حساً شعرياً مرهفاً، وذلك من خلال البوح المتناغم الجميل الذي نراه في القصيدة، إذ استغل شاعرنا مفاتن دمشق ومنــارات ذكرياتــه فيها، ليفجر معاني التشوق ومشاعر الحنين، فيصف أحاسيسه تجاه قاسيون وجبــال الزبداني وحرمون، فهي التي تثير الذكريات لأنها القصد والســبيل والهــدف، وإن كانت الغربة قد حرمته من نعمة الإقامة بين الأهل والأحبة، لكن حبه شديد، وصبره جميل، وعزاءه كبير، وهو الذي لم يفارق دمشق عن قِلىً أو ملال، ولكنَّــه الــدهر

---

(1) ابن الأشجّ: هو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث خرج على الحجاج وحاربه طويلاً فلمــا هزم وأسلم إلى رسل الحجاج ألقى بنفسه من سطح حصن مرتفع، ابــن عنــين، ديوانــه، الحاشية، رقم٤، ص٧١.

(٢) الحموي، محمد ياسين، دمشق في العصر الأيوبيّ، مكتب النشر العربي، دمشق، ١٩٤٦م، ص٧٥.

والحرص على الكرامة.... وربما كانت هذه القصيدة من أحسن قصائده، فهي شبيه برومیات أبي فراس الحمداني، كما يرى المرحوم أحمد الجندي[١].

وله قصيدة أخرى كتبها إلى المعتمد مبارز الدين[٢] إبراهيم ابن موسى والي دمشق، وسيرّها إليه من نيسابور سنة ٦٠١ فيقول[٣]:

كم أُوَارّي عن لوعتي وأُواري ... ما أجَنّتْ أضالعي مِن أُواري[٤]

وأُري صاحبي سلواً وفي القلـ ... ـبِ زنادٌ من قادحِ الشوق واري[٥]

جَلَدَاً أُظْهِرُ السرورَ وإنْ أضـ ... ـمرتُ حزناً بين الحشا متواري

فسقى اللهُ بين آبِل[٦] والمر ... جِ ثقالاً من الغَوادي السواري

كلَّ وطفاءَ تحسبُ الرعدَ فيها ... بعدَ وهنٍ تجاوُبَ الأطيارِ

ورُبا عزَّتا قد جادَها الثلـ ... ـجُ ولاحتْ من سائرِ الأقطار

كعروسٍ من آل ساسانَ تُجلى ... في دبيقي حُلّةٍ وإزار[٧]

وزماناً مضى على آبِل السو ... ق وليلُ الشبابِ وحَفٌ خُداري

ومَسرَّاتُنا طِوالٌ عراضٌ ... والليالي قصيرةُ الأعمارِ

---

(١) الجندي، أحمد، شعراء من بلاد الشام، دار طلاس، دمشق، ١٩٨٤م، ص٣١٨.

(٢) كان من خيار الولاة، استقر شحنة بدمشق أربعين سنة فحمدت سيرته، توفيّ بدمشق سنة ٦٢٣ هجري وله ترجمة في: الدمشقي، أبو الفداء الحافظ بن كثير، البداية والنهاية، تحقيق: أحمد أبو ملحم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ١٩٨٧، ج١٣، ص١١٥. ابن عنين، ديوانه، الحاشيةرقم٦، ص٧٤.

(٣) ابن عنين، ديوانه، ص٧٥.

(٤) أواري: أعلن عن الشيء واظهر غيره، أواري: أوقد، أجنّت: أخفت، أواري: من حرارة الشوق واتقاد النار في القلب.

(٥) السلو: رخاء العيش والرغد، واري: أي خرجت ناره.

(٦) آبل: هي آبل السوق وهي قرية تسمى اليوم سوق وادي بردى بين الزبداني ودمشق. واسمها القديم ابيلا كما في قاموس الكتاب المقدس، ابن عنين، ديوانه، الحاشية رقم٧، ص٤١.

(٧) دبيقي: ثياب تنسب إلى دبيق وهي قرية بمصر، الإزار: ثوب يحيط بالنص الأسفل من البدن.

ففي هذه القصيدة أوقدت نار الغربة في نيسابور مشاعر الحنين لدى الشاعر، بادئاً بمطلع تكرر فيه حرف الراء، وكأنه يكرر صدى الشوق واضطراب المشاعر بصنعة شعرية لطيفة، تتقاذفه السعادة والأحزان لتستقر فيما بعد في مواقد أشواقه، وبعد البوح بجماعية الفرح والحزن والصبر يجد السلوى في التغني بمرابع دمشق ومنتزهاتها، فيدعو لنبع الخير (وادي بردى) بالسقيا والغيث ليسقى مرابع ديار الحبيبة وعندها يعمّ الخير وتهدأ لوعة النفوس بعد اليأس والقنوط وتزغرد الطبيعة بوساطة أطيارها التي تزرع المكان جمالاً ولعل هذا الدعاء له جذوره الممتدة إلى الماضي فتاريخ السقيا قديم يعود إلى ارتباطها بالاعتقاد الديني، ولم تقتصر على العهد الجاهلي وإنما امتدت إلى عاد وثمود(١).

وللسقيا دلالتها وأبعادها من حيث بعث الحياة والراحة، فإذا كان الشاعر مغتربا عن مدينته فإن الهموم والمعاناة تسيطر عليه، فيأخذ بالتوجه إلى الله مستمداً منه العون بالدعاء لمدينته بالخير لأنها المكان الذي أحبه وقد يحمل تضرع الشاعر للمكان بالسقيا بُعداً جمالياً " فالمائية التي يستسقى بها من الصفاء والطهارة بحيث تبعث جواً يشيع النضارة من خلال التحول الذي كان بالانقطاع والابتعاد والافتراق وإلى الاستمرارية المجسدة لحسٍّ تحولي في الطبيعة نفسها نحو الخصب والخير وذلك من خصائص الجوهرية للاستسقاء المكاني سواء أكان وطناً لأهل أم وطناً لحبيب، فالسقيا تدعو إلى حالة توازنية"(٢).

إن الشاعر يرى لحظات السعادة والنشوة قصيرة سريعة الزوال، ففي هذه المرابع عاش أعراس الفرح واللذة والاستمتاع بنشوة الخمر المنسوبة إلى (صيدنايا) البلدة الجميلة الساحرة التي تتربع على طبيعة خلاّبة.

أَجتلي بنتَ كرمةٍ خزنتها الـــــ ـــــرومُ دهراً ما بين طـينٍ وقـارِ

---

(١) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م، ج١، ص١٣٤-١٣٧.

(٢) خربوش، حسين، ظاهرة السقيا وإبعادها الدلالية في القصيدة العربية، مجلة جامعة البعث، العدد١١، أيلول، ١٩٩٢م، ص٢٦.

صَـــيْدنائيَّةُ[1] المناســـب لكـــنَّ أباها إِذا اعتزى كـــان قـــــــاري
من يدي كلُ مترَفٍ ســاحر الطَّــر فِ جميلِ الأوصـــافِ كالـــــديناءِ
بجبـــينٍ مثـــلِ الصـــباحِ منيـــرٍ تحتَ ليلٍ تضلُّ فيــه المَـــــداري
ما رأى النـــاسُ قبلـــهُ بـــدرَ ليـــلٍ طافَ فـــي مجلـــسٍ بشـــمس نهـــارِ

ويسترسل ابن عنين في وصف الخمائل الندية، وقد فاح عطرها فـــي الربيـــع، فيتذكر الرياض الخضراء التي بدت سوداء اللون، لشدة خضرتها، وقد زينتّها زهوراً خضراء تتلألأ كالكوكب، وكأن شعر أبي تمام في وصف الطبيعـــة كـــان هاجســـاً حاضراً في ذهن الشاعر، ومما قاله أبي تمام[2]:

يـــا صـــاحبي تقصـــيّا نظريكمـــا تريا وجوه الأرض كيـــف تصـــور
تريا نهـــاراً مشمســـاً قـــد شـــابه زهر الربـــــا فكأنَّمـــا هو مقمـــر

ولقد ذكر الرياض والبساتين التي زينت بجمالها أحياء دمشق ونواحيهـــا، لكـــن الدهر له بالمرصاد، فقد بدد الألفة وفرّق الشمل، في حين أن الشاعر دائم الحركـــة والتحول في الأرض يسعى إلى طلب الرزق، وكأنَّه مكلَّف بمسح الأرض التي يسير عليها لكثرة أسفاره ومنغصات غربته، لكنَّه عاد ليعلن صموده فـــي وجـــه النـــوى والأسى، فهو لا يريد الإقامة لأنه يتعزى بحركة الأقمار التي لا تستقر في مكانهـــا، فلو أتيح لطائر القطا أن يستريح لنام، ولو خيّر الشاعر لاختار الأهل والوطن اللذين لا بديل لهما:

في رِياضٍ مثلِ السماءِ اخضـــراراً زينتْها أزاهرٌ كالـــــــــــدراري
أحكم الصُنعَ شـــهرُ كـــانونَ فيهـــا فشـــــذاها يُثنـــــــي علـــى آذارِ

---

(1) صيدنائية: نسبة إلى صيدنايا وهي كما في معجم البلدان: " بلد من اعمال دمشـــق مشـــهور بكثرة الكروم والخمر الفائق ". وقاري: نسبة إلى قارة وهي قرية كبيرة في جبل القلمـــون على طريق حمص، ابن عنين، ديوانه، الحاشية رقم٥، ص٧٥.

(2) أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي، ديوانه، شرح الخطيب التبريزي، تحقيق: محمد عبده، دار المعارف، مصر، ط٣، ١٩٧٦، ج٢، ص١٩١.

مثلُ رزقــي يَــدرُّ لــي بخراســا ن ومدحي في أهل جيرون جــاري
أتمناهمُ وهيهاتَ أقصى الـــــــــ ـــــدهرُ عنهم داري وشطَّ مزاري
غيرَ أني أطوفُ في طلــب الــرز ق كأني كُـــلفّتُ مَســحَ البــراري
ومحـــالٌ قــولي لنفســي عــزاءً ســـــرعةُ السيرِ عــادةُ الأقمــارِ
لو يُخلّى القَطا لنامَ ولو خُلّـــــــ ـــــيتُ لم أرم عن وجاري وجاري
ولو أني خُـــيّرتُ في هذه الدنـــ ـيا لما اخترتُ غيرَ قــومي وداري

ويختتم الشاعر قصيدته كسابقتها بالدعوة للممدوح وشكره الذي يــراه موضــع الأمل والرجاء في التخلص من تباريح الشوق والغربة، مستظلاً بحمايته وعطفه من ضروب الدهر، داعياً للأمير بالسقيا والنجاة من كل مكروه أو مصيبة :

فأيــادي مبــارز الــدين أدنــى لثرائــي وعـــــزمُه لأنصــاري
أدركتني نُعماه في آخــر الهنـــــ ـــــد فما ظنَّــكم به وهو جــاري
أمنتّنــي يمنــاه مــن جــورِ أيــا مي وجادت يسَــاره بيســـــــاري
مَهَّدَ الشامَ عدلهُ فــالطَلا الأخـــــ ـــــرقُ يرعى مع الذئاب الضواري
دامَ تُخطيه حادثــاتُ المنـــــايا نــافذاً حكمــُه عــلى الأقـــــدار

وتتفاعل في نفس الشاعر مجموعة من المشاعر والعواطف والأحاسيس المتولدة عبر مسيرة التعايش مع الممدوح، وبدأت التفاعلات تولد هذه التجربة الإبداعية التي تجسدت عبر مجموعة من المحاور، والتي من أهمها الدعوة لمدينة دمشــق بالســقيا كما ذكرنا آنفا، وذكره لبعض الأماكن والمدن الشامية في معرض حديثه عن الحنين إلى دمشق ففي هذه القصيدة –التي بلغت خمسة وخمسين بيتاً– عندما كتبها في مدح

الملك العادل[١] أبي بكر سيف الدين بن أيوب أخي صلاح الدين(٥٤٠ – ٦١٥هـ) ويستأذنه في العودة إلى دمشق فيقول[٢]:

ماذا على طيفِ الأحبةِ لو سرى ... وعليهمُ لو سامحوني بالكَرى
جنحوا إلى قول الوُشاةِ فأعرضوا ... واللهُ يعلم أنَّ ذلك مُفترى
يا مُعرضاً عني بغير جنايةٍ ... إلاَّ لمِا رِقشَ الحسودُ وزوَّرا
هبني أسأتُ كما تقوَّلَ وافترى ... وأتيتُ في حُبِّيك أمراً مُنكرا
ما بعد بُعدك والصدودِ عقوبةٌ ... يا هاجري قد آن لي أنْ تغفرا
لا تجمعنَّ عليَّ عتبك والنوى ... حسبُ المحب عقوبةً أَنْ يُهجرا
عبءُ الصدود أخفُّ من عبء النوى ... لو كان لي في الحب أن أتخيّرا
فسقى دمشقَ ووادِيَها[٣] والحمى ... متواصلُ الإرعاد منفصمُ العُرى
حتى ترى وجهَ الرياضِ بعارضٍ ... أحوى وفَودَ الدوح أزهر نيّرا
وأعاد أياماً مضين حميدةً ... ما بين حرَّة عالقين وعشْتَرا[٤]
تلك المنازلُ لا أعِقَّهُ عالجٍ ... ورمالُ كاظمةٍ ولا وادي القُرى[١]

---

(١) أبو بكر محمد بن أيوب بن شادي الملقب بالملك العادل، أخو السلطان صلاح الدين، ولد بدمشق سنة ٥٤٠هـ وتوفي سنة ٦١٥هـ ودفن في مدرسته العادلية، له ترجمة في: ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء الزمان، ج٢، ص٦٢، ابن عنين، ديوانه، الحاشية، ص٣.

(٢) ابن عنين، ديوانه، ص٤.

(٣) وادي دمشق: هو وادي بردى حيث يجري نهر بردى من منبعه قرب الزبداني إلى دمشق والثاني الأرض المنخفضة من الغوطة المعروفة بين أهل الغوطة بأرض الوادي وأوله عند مقسم الأحد عشرية وأخره في جسر الغيضة قرب قرية المنيحة، ويجري فيه نهران منشعبان من بردى اسم الأول الداعياني أو قناة الو تارة ومقسمه في الصفوانية واسم الثاني المنيحي ومقسمه في الأحد عشرية، انظر: ابن عنين، حاشية ديوانه، الحاشية رقم٤، ص٤.

(٤) الحرة: أرض ذات حجارة نخرة سود، عالقين: قرية بظاهر دمشق في الجنوب وبها توفي الملك العادل ولا تزال معروفة بهذا الاسم إلى آلان، وعشترا: موضع بحوران من إعمال دمشق، كما في معجم البلدان، وقد ورد ذكرها في أبو شامة، الرّوضتين في أخبار الدولتين: النوريّة والصلاحيّة، ج١، ص١٨٦ و٢٠٧. انظر: ابن عنين، ديوانه، ص٤.

تأتي هذه اللوحة لتعبر عن جماليات المكان، ورغبة الشاعر الجامحة في زيارة طيف الأحبة الذي يتمنى لقاءهم، والرغبة في عفوهم، ويطلب من الممدوح ألا تزيد قسوته عليه، فتزداد تباريح النوى والآم الصدود والاغتراب، لأنه مؤمن أن عقوبة المحب أن يهجر، ولو عاقبوه في الحب بغير الجفاء لرجاهم وطمع في أن يتصبّر... ثم يلتفت إلى مدينة دمشق، فيدعو لها بالسقيا والخصب، ويتغنّى بذكر بردى ونبعه بالقرب من الزبداني، متمنياً أن تعمّ الخضرة وجه الأرض والمنازل الأثيرة.

أرضٌ إذا مرَّتْ بها ريحُ الصبّا ... حملتْ على الأغصان مسكاً أذْفرا
فارقتُها لا عن رضىً وهجرتُها ... لا عن قِلىً ورحلتُ لا متخيّرا
أسعى لرزقٍ في البلاد مفرَّقٍ ... ومن البليّة أنْ يكون مقتّرا
ولقد قطعتُ الأرض طوراً سالكاً ... نجداً وآونةً أجدُّ مغوَّرا
وأصونُ وجهَ مدائحي متقنّعاً ... وأكفُّ ذيلَ مطامعي متستّرا
كم ليلةٍ كالبحر جبتُ ظلامَها ... عن واضح الصبح المنير فأسفرا
في فتيةٍ مثل النجوم تسنَّموا ... في البيد أَمثالَ الأهلَّة ضُمرَّا
باتوا على شُعب الرحال جوانحاً ... والنومُ يفتل في الغوارب والذُّرا
مترنّحين من النُّعاس كأنّهم ... شربوا بكاسات الوجيف المسكرا

وكأنَّ الشاعر يريد أن يشعرنا بالغربة التي عاناها، فهو يقطع الآفاق بأغوارها وأنجادها من دون أن يفرط بكرامته ورباطة جأشه، فقد عانى ظلمة الليل وهموم الصباح بفتية كمصابيح الدجى، لعلهم يقتلون الزمن ويبددون غربتهم، فالشاعر شديد

---

(١) الأعقة: جمع عقيق والعقيق الوادي، عالج: رمال بين فيد والقريات وهي متصلة بالثعلبية على طريق مكة لا ماء بها، وكاظمة: على سيف البحر في طريق البحرين إلى البصرة، ووادي القرى: واد بين المدينة والشام كثير القرى من إعمال المدينة وقد أكثر الشعراء من ذكر هذه الأماكن والتغني بها، انظر: ابن عنين، ديوانه، الحاشية رقم٧، ص٤.

الحنين إلى وطنه الذي كلمّا هبّت عليه الرياح، نشرت عبيرها في الأرجـــاء، ولقـــد أعجب ابن خلكان بهذه القصيدة، فقال: "ولقد أحسن فيها كل الإحسان واستعطفه أبلغ استعطاف"[١]، ورأى المرحوم خليل مردم بك أنها: "من حرّ الشعر وقد تكون أحسن شعره "[٢]. هكذا استطاع ابن عنين بهذه اللوحة الفنية الجميلة أن يخلق مشاعر مـــن الغربة والحنين إلى وطنه دمشق، إذ يتشوق إليها ويذكر مياهه ووديانـــه والريـــاض والمنازل والرياح ويتحسر على عهده بهذه المدينة وحينما يسأل عن الســـبب يـــرى مسؤولية القدر وأنّه هجرها قسراً وليس اختياراً.

ويرتبط هذا الحنين إلى ديار الشام بالتلذذ بترداد أسماء المواقع الشامية فـــي الشعر، وقد كثر على هذا على نحو واضح، وكأنَّ الشعراء أرادوا أن يبثوا كل موقع في ديارهم في الأشعار التي يقولونها. ومن ذلك قول ابن عقيل الزرعـــيّ[٣] يتغنـــى بجمال دمشق وهو ناءٍ عنها، فيذكر معالمها، وزمانه الذي قضاه في علياء جيـــرون، كما يستعيد ذكرياته في ربوتها الفيحاء بين الجـــداول التـــي تجـــري مياهها بـــين البساتين[٤]:

ذكرت ما لست انسي من معاليهـــا عصراً مضى لي على علياءِ جيـــرونِ
لله ربوتهـــا الفيحـــاء سارحـــــةً منها الجداولُ فـــي تلـــك البساتيـــــنِ
فالنيربين فواديها فمـــا جمعـــــتْ سطرى ومقرى إلى ماحَوْلَ جسْريـــــنِ

---

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء الزمان، ج٥، ص١٦.

(٢) ابن عنين، ديوانه، المقدمة، ص١٢.

(٣) أحمد بن عقيل بن نصر بن أبو العباس الزّرعي العامري، وزُرَعُ التي ينسب إليها، قريـــة على باب دمشق إشارت المصادر إلى اتصال ابن عقيل الملك الأيـــوبيّ المعظّـــم عيســـى وملازمته له، تنص المصادر على السنة التي ولد فيها ابن عقيل، غير أنه ذكر أنه تـــوفي في رمضان سنة ٦٢٣هـــ، وهذا يقود إلى القول أنه ربما ولد في الربع الآخر من القـــرن السادس الهجري، انظر: ابن الشّعار، أبو البركات مبارك الموصلي، عقود الجمـــان مـــن شعراء هذا الزمان، تاريخ معهد أحياء المخطوطات العربيّة، مصر، ج١، ص١٢٣.

(٤) الزُّرعي، أحمد بن عقيل بن نصير، المختار من ديوان ابن عقيل الزُّرعي، مخطوط رقـــم ٢٨١٦، طبقبوسراي، تركيا، (د.ت)، ص١٠٥.

وقد نظم عبد المنعم الجلياني قصيدة أسماها (القصيدة الشمّاء في نعت الغوطة الدّهماء)، تغنّى فيها بجمال البيئة الدمشقية، واستعرض بعض مواقع النزهة التي يخرج الناس إليها، ومن ذلك يذكر يوما قضاه في أحد البساتين(١):

عهود ليلى وما ضمّت لياليها	أهدت جديد صبابتي تواليها
لا تقدحي في ضنى جسمي معاتبة	فشغل اعضان الأنفاس توريها
أيام جلّق والأهواء مسعدة	ونضرة العيش تنهيها مباديها
في الغوطة الغبطة المدود نعمتها	ارواح جنة عدنٍ في نواحيها
جُلْنا بأعطافها نرعى نواظرنا	مَنادحاً يَزَعُ الأوصاب زاهيها
حتى استقلّت بنا وخّادة رسم	مضمرّات غليظ قلب حاديها
يُفرى المَهامِة مهما استصرخت فرق	أجاب داعيها أوجاب داعيها
بطاويات الفلا ثقلاً حقائبها	وراميات الدُّجى خِفّاً هواديها
كان من بمطاها في ذُرى قُزح	في كفه النسقُ الشاميّ يَثْنيها

يستهل الشاعر قصيدته بما هيّج شوقه وحنينه إلى عهود ليلى، ولعل هذه الصورة الجميلة تقدح في نفس الشاعر وهي صورة حية تنبض بالحيوية والحياة، إذ يتشوق الشاعر إلى روعة مناظرها، وحسن منتزهاتها، ورغد عيشها، وجمال مرابعها، وهوائها العليل والنسيم، ومن هنا فقد وعى الشاعر خصوصية هذا المكان – مدينة دمشق – التي أحبّها بهذا العمل الأدبي الذي يعبّر عن رؤية متميزة لعشق المكان.

لقد سعد الشاعر في مدينة دمشق وترك بصمات واضحة الأثر في ربوعها وديارها، فغدت أيامه وكأنّها ضرب من الماضي السحيق الذي لم ولن ينساها، كما لن ينسى أيامه في جلّق وهوائها ورغد عيشها، والغوطة التي غدت كجنة عدن، ومن هنا فارتباط الشاعر بالمدينة وحنينه إلى منازلها ينبثق من خلال هذه العلاقات

---

(١) الجلياني، عبدالمنعم، منادح الممادح وروضة المآثر والمفاخر في خصائص الملك الناصر، مخطوط رقم ٣٢٩٨ أدب، مكتبة الأسد الوطنية، دمشق، (د.ت)، ص٤٢.

الإنسانية الوجدانية التي يرتبط فيها مع أحبابه، فالمكان بالنسبة للإنسان والشاعر على وجه الخصوص هو هذه العلاقة الروحية والوجدانية المتشكلة من خلال بناء العلاقة مع طرف آخر جرت أحداثه وتفاعلاته في هذا المكان مما يكسَّبه هذه الخصوصية.

ويومنا والمنى تعطي أعنتّها ... طَوْع القيادِ وتجنى حَسْبَ جانيها
والمرجَ كالعين والأنهارُ أدُمُعها ... وظلّ شجرآئها جفنٌ يغشيّها
كأنّه سَبَحٌ يحوي زمُرَّدةً ... أو طرفُ زرقآء مكحولَ مآقيها
للطّرفِ والطّرّفِ في ميدانه نُزةٌ ... تأتي النفوسُ به مرضى فيشفيها
تُرخى الضحى والعشايا وَسْطَه عذباً ... تعلو الطهيرة فوضاها فتزويها
ونحن نرفل في ثنيي ملاءته ... مِقلّصاً ذيلها طوراً ومضفيها
انيسُنا ذاتُ خلخال تجول به ... ولا يَجْول ويَجْلوه تثنيّها
شِق الحياة مزاج الرَّوح جآئلة ... في روعةِ فمعانيه معانيها
لو لم يشقْ حسنها شاقت جبلّتها ... قبل التلاقي تلاقٍ في مبانيها
تجّر للدلّ ذيلاً في تراقبها ... وتشعر الشمس ليلاً في تراقبها

هنا يصور الشاعر رحلات التنزه التي كان يقوم بها عامة الناس في سياق مدحهم للمدن الشامية، حيث يخرجون إلى الطبيعة ويقضون فيها بعض أوقاتهم، وقد كثر الشعر الذي يمثل ذلك، حتى ليخيّل إلى القارئ أن بساتين دمشق، كانت متنزهاً واسعاً يفيء إليه الناس للتمتع بجمالها الخلاّب ومحاسن طبيعتها وكأنّهم فتنوا بها فتوناً، حيثُ كانوا يرون في أجوائها ما يطيب اللقاء، فتتمتع النفس بالمناظر الطبيعية الخلاّبة التي تأسر النفوس وتسلب العقول، وكأنّ الشعراء يحسّون راحة غامرة وهم يصورون مدنهم ومتنزهاتها التي تتوافر فيها أسباب الرّفاهية وأسباب العيش الرغد وخاصة إذا كان هوائها صافياً طيباً وإن كان أحد جوانبها محفوفاً بالرّياض التي تنبعث من أرجائها أنسام معبقّة بالعبير اللطيف ومحفّوفة في الجانب الآخر ببحر يمدّها بنسيم رطب منعش.

وما نسيت فلا أنسى عيشتنا ... بالنيربين وقد برقّتْ حواشيها

للابنوس على الغيطـــان راصـــعة   من الأصيل وعاجاً في روابيــــــــها
وساجعٍ غــرد فـــي يــانعٍ خضـــرٍ   ترتجّ قضبـــّـانه أنى يغنيـــــــــها
وقفت بين سمآئين الكواكـــب مـــن   فوقي وتحتي نجوم لســتُ أحصـــيها
من كلِّ زاهـــرةٍ غضـــرآء بـــاهرةٍ   تفرق الحُسْن نهبا فـــي نواحيــــــها

ويصف شرف الدين راجح بن إسماعيل الحليّ[1] مدينة دمشق[2]:

فانهض إلى خلس اللَّـذات منتبهـاً   أيامها وتمتع من لياليهــــــــــــــا
فيها دمشقُ كمـــا تختـــار سافــــرةٌ   تجلو عليك بديعاً من معانيهــــــــا
حيث التفتّ فجنّـــاتٌ مزخرفــــــةٌ   بالحسنِ يقصر عنها وصفُ رائيهـــا
فما اجتليت خدوداً مـــن شقائقهــــا   إلا اجتنيت ثغوراً من أقاحيهـــــــا
أرضٌ إذا باكرتّها الغادياتُ فــــلا   راحت بِسرحةِ نعمـــانِ وواديهــــــا

واقترح بعض الأكابر في الدولة النورية على العماد الأصـــفهاني أن يعمـــل قصيدة في دمشق، فأنشأ قصيدة مطلعها[3]:

أهدى النسيم لنـــا ريّـــا الريـــاحين   أم طيب أخلاق جيرانـــي بجيـــرون

والقصيدة استعراض لفضائل مدينة دمشق الاجتماعية ومحاســنها الطبيعيـــة، ومظاهر الفتنة الجمالية فيها، فهو يفضلها على غيرها من البلدان لما تمتاز به مـــن رعاية للفقراء والمحتاجين وعناية بالمساكين والمنكسرين، وإقامة المنازل الخاصـــة لهم:

دمشق عندي لا تحصى فضائلهـــا   عدّاً وحصراً ويُحصى رمـــل يبريـــنِ

---

(١) راجح الحليّ، أخباره في: الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي بن العماد ،شـــذرات الـــذهب فـــي أخبار من ذهب، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٩٣٠، ج٥، ص١٢٣.
(٢) ابن شداد، عزّ الدين أبي عبد الله محمد بن علي بن إبراهيم، الأعلاق الخطيرة فـــي ذكـــر آمراء الشام والجزيرة، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: سامي الدّهان، مجمع العلمي العربـــي، دمشق، ١٩٥٦، ج٢، ص٣٥٩.
(٣)الأصفهاني، العماد أبو عبدالله محمد بن حامد، ديوانه، جمع وتحقيق ناظم رشيد، الموصـــل، جامعة الموصل، ١٩٨٣، ص ٤٣٢.

وما أرى بلدةً أخرى تماثلهــــــــا   في الحسنِ من مصر حتى منتهى الصينِ
في كل قطرٍ بها وكــرٌ منكســـــــرٍ   ومســـكّنٌ غيـــرُ مملـــولٍ لمسكيـــــنِ
وان من باع كـــل العمـــر مقتنعـــاً   بساعةٍ في ذراها غير مغبـــــــــونِ
يصيبك ميطورها[1] طوراً ونيربهـــا   طوراً وتوليك إحسانا بتحسيـــــــــنِ
تري جواسقها[2] في الجـــو شـــاهقةٌ   كأنهن قصور للسلاطيـــــــــــــنِ

والقصيدة فيها كل العناصر التي تحدّث عنها الشـــعراء الســـابقون بصـــورة متفرقة، ففيها وصف لمظاهر العمران في دمشق، وتصوير أخّاذ للبيئـــة الطبيعيـــة الجميلة بما فيها من مياه وبساتين وطيور حتى غدت المدينة لدى الشاعر دار النعيم، وهو معين متاح للناظرين جميعاً، قد فتحت أبوابه للأبرار وغير الأبرار، ولم يقـــف الشاعر عند حدود ذلك بل وصف مظاهر الجمال البشري فيهـــا، لاســـيما الفتيـــات الحسان اللواتي يخطفن القلوب بصورهن المستحسنة وأخلاقهن العذبة يقول:

إن القلوب وألحـــاظ الحســـان بهـــا   كالعصافير في أيدي الشواهيـــــــن
من كل خاطفة للقلب مخطفـــــــــةٍ   بالخصر تمطلني ديني وتلوينـــــــي

ومن القصائد الطّوال التي قيلت في مدح دمشق قصيدة قالها الأمير أبو الفضـــل إسماعيل بن أبي العساكر[3]، وقد جاء فيها كما قال ابن عساكر، بمحاســـن دمشـــق مستقصاة مفصّلة والقصيدة مطلعها [1]:

---

(1) الميطور: من قرى دمشق. الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٣١٩، قال عرقلة بن جابر بن نمير الدمشقي:

وكم ليلة بالماطرون قطعتها   ويوم إلى الميطور وهو مطير

(2) الجواسق: القصر أو الحصن وهي قرية كبيرة من نواحي دجيل من إعمال بغـــداد بينهمـــا عشرة فراسخ، انظر: الحموي، معجم البلدان، ج١، ص٤١٦.

(٣) ذكره العماد في الخريدة في شعراء الأمراء بني منقذ الكنانيين من شيزر، وقال: كان شـــاباً فاضلاً وسكن بعد اخذ شيزر منهم بدمشق، توفي سنة أحدى وستين، انظـــر: الأصـــفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء الشام، ورقة ١١٥ب – ١١٦آ ولم يذكر هـــذه القصيدة.

يــا زائــراً يزجي القرومَ البــزَّلا[٢] دَعْ قَصد بغدادٍ وخــلّ المِوصــلا
لا تُزْجهــا لســوى دمشــق فأنّــه سيُطيلُ حزّاً منْ تعــدّى المِفصــلا

والقصيدة من حيثُ المضمون ذات قيمة كبيرة، فهي تعبرّ عن إعجاب الشاعر بما شاهده في المدينة من مظاهر دينية وتعليمية متنّوعة في المدارس والمساجد، كما في قوله:

ذو ربــوةٍ جــاء القُــرآنُ بــذكرها ومساجدٍ بركاتُهــا لــن تُجهــــلا
ومدارس لم تأتها فــي مُشْــــكلٍ إلاَّ وجــدتَ فتــىً يَحُــلُّ المُشْكــلا
ما أمهَّــا مرءٌ يكابــــدُ حَيْــــرةً وخصاصةً إلاّ اهتدى وتمــــــوّلا
وأئمةٌ تُلقــــي الدروس وســــادةٌ تَشْفــي النفوسَ وداؤهــا قد أعضلا

وحري بنا أن نذكر العمارة الإسلامية والحضارة التي كانت قائمة آنذاك، ففي قصيدة لابن عنين يمدح فيها الملك[٣] المعظّم عيسى بن الملك العادل، وصف لمدينة دمشق وقصورها فيقول[٤]:

أشاقك من عُليا دمشــقَ قصــورُها وولدان روضِ النيَّــربينِ وحورُهــا
ومنبجسٌ في ظــلّ أحــوى كأنــه ثيابُ عروسٍ فــاحَ منهــا عبيرُهــا
منازلُ أُنسٍ ما أمحَّــتْ ولا أمَّحــتْ بمرّ الغوادي والســواري ســطورُها
كــأنَّ عليهــا عبقــريَّ مطــارفٍ من الوشي يُسديها الحيــا ويُنيرُهــا
سقى اللهُ دوحَ الغُوطتين ولا ارتوى من الموصــلِ الحــدباءِ إلاّ قبورُهــا

---

(١) الكتبي، عيون التواريخ، ج١٢، ص٢٢٤.
(٢) القروم: جمع قرم وهو البعير، والبزل: جمع بزول وهي الناقة أو الجمل في تاسع سنينه.
(٣) الملك المعظّم عيسى بن الملك العادل ولد سنة ٥٧٦هـ وكان مع علو همته عالماً بالعربية والفقه توفي بدمشق سنة ٦٢٤هـ ودفن بمدرسته المعظمية في الصالحية وله ترجمة في: ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء الزمان، ج١، ص٥٠١.
(٤) ابن عنين، ديوانه، ص ١٥.

فالشاعر يصف قصور دمشق، وأناقة عمارتها والجمال البشري فيها، ممزوجا بمشاعر الحزن والشوق، فقد أغنى قصيدته عندما تحدث عن الغزلان التي ترتع في روض النيربين والنهر والشجر والريح الطيبة، والبساط الأخضر المزدان بالزهور في الربيع، والمطر الذي يجدد شباب الطبيعة، وقد دفعه مشاعر الحب إلى الدعاء بالسقيا لدوح الروضتين.

تظنُّ ذُرى لبنانَ والليلُ عاكفٌ صديعَ صباحٍ من سراها يُجيرُها
وقد خلفّتْ رعنَ المداخل خلفَها ونكّب عنها من يمين سَنيرُها

ويختتم القصيدة بمشاعر الفقد والرغبة في الوصال، وإعادة الذكريات الطيبة التي شهدتها جبال لبنان المكسوة بالثلج فأضاء المكان وطرد ظلمة الليل، لقد أبدع ابن عنين في وصف الطيف ومظاهر الطبيعة المختلفة كثلج حرمون وغوطة دمشق والبقاع ونهر بردى وتوظيفها لخدمة غرض القصيدة وهو المديح، لأنه كعادته يماهي بين مشاعره والطبيعة والثناء على الممدوح تأكيداً للنزعة الإنسانية.

بيد أن الشعراء قد نفذوا من مدح مدينة دمشق إلى مدح أهلها وتصوير ما يتصفون به من صفات كريمة ودماثة أخلاق ورعاية للغريب ووفاء للصديق وشجاعة في ميادين القتال فيقول القاضي أبو حامد الشهروزري[١]:

فيا أهلَ جلّقَ حيّاكُمُ وجادكُمُ العارض المبرقُ[٢]
فلولا لطافُتكمْ لم تكنْ تطيبُ وتعذبَ لي جلّقُ
إذا خفقَ البرقُ من نحوكمْ يبيتُ فؤادي له يخفقُ
إذا ما الغريبُ يُرى بينكمُ فكلٌّ له راحمٌ مُشْفِقُ
وإن قالَ أعداؤكُمُ عيبكُمْ ملالُ الصدَّيقِ فما صَدَّقُوا

---

(١) هو محيي الدين أبو حامد بن محمد بن عبدالله الشهرزوري، قاضي حلب، توفي سنة ٥٨٦هـ، انظر: الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، ج٢، ص٣٢٩. ابن عساكر، الحافظ أبو الحسن علي بن حسن تاريخ مدينة دمشق، مكتبة الجامعة الأردنية، عمان، الأردن، (د.ت)، ج١٥، ص٤٥٨.

(٢) العارض: المطر.

تُـــرى أيّ وقـــتٍ دُعيتـــــمُ إلـــى لقـــــــاءِ العـــدوّ فلـــمْ تُعنِقُـــوا؟؟؟[1]
كـــــأنّكم لُســــوَىَ المــــــــكرما تِ والضَّرْبِ بالسَّـيفِ لــم تُخْلَقُــوا

فقد تغنى الشاعر بأخلاق أهل دمشق الفاضلة، وقد أشار إلى جودهم وكرمهم وإغاثة الملهوف وإلى رقتهم ولطفهم وإحسانهم للغريب، ووفائهم للصـــديق، ونـــوّه بحماستهم وشجاعتهم في لقاء الأعداء والدفاع عن مدينتهم.

وإذا تجاوزنا هذه الأبيات وألقينا الضوء على إجماع الشعراء علـــى محبـــة دمشق وتفضيلها على البلدان الأخرى، وتمجيد شيم أهلها في الكرم والوفـــاء والتـــي تبلغ آلاف الأبيات، طالعنا في ديوان فتيان الشاغوري[2] قصائد رائعة صدرت عـــن مشاعر صادقة وتسليم بفضل دمشق وأهلها جاءت ثمرة إقامة الشاعر فيها ومعاشرته الطويلة لها، والإشارة إلى تاريخها المجيد والدفاع عن العروبـــة والـــدين، وإســـهام علمائها وأدبائها في حركة الفكر والإبداع وجمال طبيعتها وشجاعة أهلها، وكثيراً ما فضّل الشعراء دمشق على غيرها، ووقفوا عند مظاهر الجمالية التي تميزها، كما في أبيات فتيان الشاغوري الذي فضّل فيها الشاعر دمشق وجعلها مدينة لا نظير لهـــا، لما فيها من مظاهر العمران، ولجمال طبيعتها وحسن أخلاق أبنائها، إذ يقول[3]:

دمشـــقُ كالشَّـــمسِ لا نظيـــرَ لهـــا يوجـــــــدُ في ســـــائرِ التصـــاويرِ
كأنَّهـــا جنـــّـــــــةٌ مُزخَرْفــــــــــةٌ زَهـــَــــتْ بِولِدانها وبالحـــُـــــورِ
وكلُّ غُصنٍ بكُلِّ فاكهــــــــــــــةٍ دانٍ لجاني الثـــِّـــمارِ مَصْهُـــورِ

([1]) تعنقوا: تسرعوا.

(٢) هو أبو محمد فتيان بن علي بن فتيان الأسدي الدمشقي المعروف بالشاغوري ولـــد ســـنة ٥٣٣هـــ، قضى حياته معلماً وأخذ يقرأ النحو في جامع دمشـــق الكبيـــر، وظـــل يمـــارس التدريس حتى توفي سنة ٦١٥هـــ وقد شارف على التسعين، انظر ترجمته في: ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء الزمان، ج٤، ص٢٦، وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٦، ص٢٣٤، أبو شامة، شهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل المقدسي، الذَّيل على الروضتين في أخبار الدولتين، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٤، ص٥٤.

(٣) الشاغوري، فتيان، ديوانه، تحقيق أحمد الجندي، مطبوعات مجمع اللغة العربيـــة، دمشـــق، ١٩٧٦م، ص١٧٧.

وكل نَهرٍ حصباؤه دُررٌ جَرَى عليهنَّ ذَوبُ كافورِ
أمواجُهُ كالخيولِ غائرةً بِهازمٍ كاسرٍ ومكسورِ
أسرعُ من أكلُبٍ وثبنَ وقد رأينَ، صَيْداً من السَّواجيرِ
مرابعٌ خيّمَ الرَّبيعُ بها فما ترى قلبهُ مذعورِ
رياَضُها من بَنفَسْجٍ بَهِجٍ ونرجسٍ مُضَعْفٍ ومنثورِ

لقد أبرز الشاعر من خلال الأبيات صورة دمشق من حيث تفاصيلها الدقيقة، فهي جنة ازدحمت بكل أنواع الفاكهة ومرابعها انبتت الورود، وتأتي هذه اللوحة لتعبر عن جماليات المكان من خلال غناها بالألوان، إذ نرى الألوان ظاهرة قد طغت على هذه اللوحة بمعماريتها ومناظرها الطبيعية، فالألوان سمة بارزة تجملت بها الطبيعية، إذ تقاطعت الألوان مع مظاهر السرعة، فمن العدل بمكان أن نذكر هنا مظاهر السرعة التي سيطرت على الأبيات في البنى: (كانحناء الغصن لجاني الثمار، جريان الماء من أعالي الربوة، وتدافع الأمواج، والكلاب التي رأت صيداً غزيراً، ورقص المطر)، أما الألوان فتتشكل في: (الشمس، والربيع والحور والولدان، الأغصان، الجنة "بؤرة اللون"، والرياض).

هذه الألوان التي تطغى على جسم القصيدة، تتآلف وتتجاوب بصورة حقيقية مع المضمون، الذي يتحدث عنه الشاعر "وصف مدينة دمشق"، فإذا كانت هذه المدينة جميلة حسنة الموقع، تنتشر حولها الجنان والرياض، فمن الطبيعي أن تكتسي معالمها الحضارية المعمارية، وطبيعتها ذات المناظر الخلابة، بالألوان الجميلة التي تشّد الناس إليها لتبعث في نفوسهم الإعجاب.

وفي خاتمة القصيدة تتماهى مدينة دمشق مع الممدوح، فإذا الاثنان قد حازا صفات الكمال والجمال كلها، حيث يقول:

فكم حُسامٍ على منابرِ شاذر روانِها للمياهِ مشهورِ
حازتْ صفاتِ الكمالِ كالملكِ الصالحِ ذي المكرمُاتِ والخيرِ
سُبحانَ مَنْ بالإحسانِ زَيَّنَهُ والحسنِ في مُسندٍ ومأثورِ

إنَّ الشاعر في البيتين الأخيرين، يقرر الصفات التي يريد أن ينسبها إلى الممدوح، وتتمثل في فعل الخير، والبذل والعطاء والحسن والجمال. لذا تقاطعت في النص المفردات الجمالية التي اشرنا إليها مع مفردات الحركة التي تمثل (البذل والعطاء والشجاعة التي غالباً ما يصف بها الشعراء ممدوحيهم، ويمكننا أن نقرّ بأن صورة دمشق قد تأطرت على حسب الصفات التي يود الشاعر إثباتها في ممدوحه.

إن الشاعر يضفي على مدينة دمشق هالة دينية، عندما يشبهها بجنة عدن، ثم يأخذ بتفصيل صورة هذه الجنة، فيقرن أهلها برضوان أهل الجنة، ونسائها بالحور العين، ويصف جنانها التي تجري من تحتها الأنهار، فيقول(١):

دمشقُ جَنَّةُ عدنٍ ما يفارِقُها رضوانُ ذو البشرِ والولدانُ والحورُ
ورودُها كخدورِ الغيدِ رانيةً سِيقَتْ إلى سُوقها منه بواكيرُ
تقولُ حينَ بها أنهارُها اصطفَقَتْ أحَلَّ ثَلْجٌ بها أم ذابَ بلُّورُ
كم جدول عنده سرب يسير به فسر به امن والماء مذعور
وكم اكف يواقيت محتمةٍ وصليها ذلك المنظوم والمنثور

إن هذه التفاصيل الخاصة تكاد تقترب من الألفاظ القرآنية، في حين تحتفظ خيوطها الداخلية بالمسحة الإيمانية، وذلك من خلال ألفاظ مقصودة مثل: "جنة عدن– الحور– رضوان – الإمام الحق – تدعو لخالقنا – زور...." لقد تقاطعت هذه المفردات مع الخيوط الجمالية في النص: خدود الغيد، انهار، بلور، منظوم، منثور، لتشكل صورة الممدوح التي تعكس على صورة دمشق في النهاية، حيث تبدو دمشق وكأنها اكتست بهالة دينية شفافة تتنوع فيها مظاهر الجمال المختلفة.

ولم يقتصر الأمر عند شعراء القرن السادس الهجري على مدح مدينة دمشق فحسب، فقد مدحوا مدينة حلب كذلك وتغنوا بجمال طبيعتها، ومن القصائد المستحسنات التي قيلت فيها، قصيدة للرشيد النابلسي(٢)، ذكر فيها جمال مروجها،

---

(١) الشاغوري، فتيان، ديوانه، ص١٨٩.

(٢) هو عبد الرحمن بن بدر بن الحسن بن المفرج بن بكار أبو محمد النابلسي، ولد بدمشق سنة ٥٥٣هـ أشارت المصادر إلى اهتمامه بتحصيل الأدب واللغة، امتدح ملوك الشام بني

واتساع ميادينها، ولا سيما الميدان الأخضر الذي جـدّده الملـك الظـاهر غـازي، يقول[1]:

فحـبذا في حلبٍ مسـارحٌ | للحُسْنِ رُوحُ الُروحِ في عيانِهـا
وحـبّذا ما تَمْرحُ الأعْينُ فـي | مروجِهِ الفَيْحـاءِ من مَيْدانِهـا
وما اكتَسَت أقطارهُ مـن حُلـلٍ | تَنـوَّقَ الصَّـانعُ في ألوانِهـا
وما جرى حَوْليـهِ مِـن جـداولٍ | عَيْـنُ الحيـاةِ الوِرْدُ من غُدْرانِـا
رَحْبُ مجالِ الخَيْل ممتدٌّ مَـدى | السابقِ في الحَلْبةِ من فُرسانَهـا
لا يبلغُ الغـايةَ مـن أقطـاره | إلاّ فتـىً يُطْـلِقُ منِ عنِـانَها
يُشْرَحُ إذ يحلُّـه صـدْرُ الفتَى | وتَمْـرَحُ الجيادُ في أرْسانَهـا

هكذا شكل وصف المدينة الشامية والحنين إليها ظاهرة واضحة فـي الشـعر الشامي زمن الحروب الصليبية، وكان حديث الشعراء عن هذه المدينة يعكس الأبعاد الجمالية التي تتميز بها، وهي ليست جماليات هندسية أو معمارية فحسب، بل يقـيم علاقات مع أشيائها وعناصرها، يستنطقها ويشخصها ويستحضر جمالياتها المختلفـة في ذاكرته، فقد أشار الشعراء إلى الطبيعية فيهـا: الربيـع والمتنزهـات والجنـان والبساتين، ومختلف أنواع الأزهار، والنباتات طيبة الرائحة، كما ذكر سهولها ومدنها وقراها وقصورها وأهوائها وينابيعها، وأهلها وما تميزوا به مـن صـفات كريمـة ومزايا فاضلة.

إنّ الشاعر يرصد هذه الجماليات لأنها تشكل مسرح أحداثه ومستودع أمالـه وآلامه، وأخيرا يمكن القول إن حنين الشاعر الشامي إلى المدينة، كان حنين إنسـان عاشق متيم بها، فقد جسّد هذا الحب من خلال التغني بجمال مدينته، وما كان يضفيه عليها من عناصر بث الروح والحياة..

أيوب، انظر: الموصلي، ابن الشعار المبارك بن أحمد، عقد الجمان من شعراء هذا الزمان، معهد إحياء المخطوطات العربية، القاهرة، (د.ت)، ج١، ص١٢٣

(١) الرقب، الشعر العربي في بلاد الشام في القرن السادس الهجري، ص٢٩١.

٢.١ وصف المدن المحتلة:

يعيش الأدباء تجاربهم الانفعالية الخاصة، كما أنهم يعايشون التجارب والأحداث العامة التي تنتاب الناس في البيئة المحيطة بهم، لينقل لنا الأديب بلوحته ما يعانيه قومه من هموم والآلام وأحزان مرتبطة بالكوارث السياسية والاقتصادية التي انبثقت عقب الحروب الصليبية، فالشعراء الشاميون كانوا يعالجون قضايا أمتهم وقوهم ويتطلعون إلى تحقيق ما وراء الشمس، ويصورون تحسرهم على المدن التي سقطت بأيدي الصليبين.

وإذا كانت الحروب الصليبية قد دامت زهاء قرنين من الزمن، بدءاً يوم وضع الصليبيون أرجلهم بأرض الشام، يريدون الاستيلاء عليه، وكان ذلك سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة وانتهى أمرهم حين استولى الأشرف خليل بن قلاوون على مدينة عكا وهي آخر مدينة كانت بأيدي الصليبين، وألقى بهم إلى البحر، عام اثنين وتسعين وستمائة للهجرة، فمن الطبيعي أن تترك هذه الحروب أثاراً واضحةً في الأدب، ومن الطبيعي أيضا أن تكون سبباً ومحفزاً قوياً في إثارة رد فعل الشعراء الشاميين، فالشعر استيقظ في وقت مبكر للتحريض على رد العدوان، الذي اغتصب أرضهم ومدنهم وقراهم، وشتت شمل الأسر في البلاد، فالمدينة لدى الشعراء هي تجربتهم بها بل أن العلاقة التي تربط الشاعر بالمكان هي الذكريات والتأملات كما يقول الربابعة[١].

لذلك كان الشعراء يصورون المدينة المحتلة، كيف كانت قبل الاحتلال وما تتحلى به من مناظر طبيعية خلاّبة وقصور وبساتين وجنان يمكن استعادتها في مخيلة الشعراء عن طريق الحلم "ولهذا فأن الأماكن التي مارسنا فيها أحلام اليقظة تعيد تكوين نفسها في حلم يقظة جديدة، ونظراً لأن ذكرياتنا عن البيوت التي سكناها نعيشها مرة أخرى كحلم يقظة، فأن هذه البيوت تعيش معنا طيلة الحياة....."[٢].

فقد تحدث الشعراء عن اهتمام الفرنجة بتحصين المدن بعد الاستيلاء عليها، وحرصهم على توفير أسباب المنعة والحماية لها، فقد صور ابن عنين في معرض رثائه

---

(١) الربابعة، موسى، ظواهر الإنحراف الأسلوبي في شعر مجنون ليلى،مجلة أبحاث اليرموك، مجلد٨، عدد٢، ١٩٩٠، ص٥٦.

(٢) باشلار، جماليات المكان، ص٤٤.

الملك المعظّم عيسى الأسوار المنيعّة التي أقامها الفرنجة حول مدينة قيسارية، والأبراج التي علته، فيقول(١):

ولقد شهـــــدتُك يوم قيســـــارّية والشمـــُـس قد نســـج القتامُ لهـــا ردا
والكفرُ معتصُمٌ بسورٍ مشرفِ الــــ أبراج، أُحكـــمَ بالصفيّـــــح وشُيّــدا

ووصف ابن القيسراني(٢) بأسلوبٍ بيانيّ منعة مدينة الرُّها، وقوة أسوارها، وتحصيناتها، وكثافة الأسلحة التي أقيمت حولها، إذ يقول(٣):

وقد قلـــّدوا السيـــّف تحصيــــنِهم ولكنّــــه النـــّاصــــرُ الخـــــاذلُ
وشققتــمُ إليهـــا بحــــــار الحــــــد يـــد ملتطمــــــاً موجهُ الهاطــلُ
وخضـــــتم غمـــــارَ الـــرّدي بـــالرّدي وعـــن نفســه يـــــدفـــع القاتــلُ

وغالبا ما كان الفرنجة يقيمون قلاعهم وحصونهم فوق القمم العالية، وقد وصف الشعراء منعتها وتحليقها في الذرى، واستعاروا له في الأغلب صورة النجم لإبراز هذه السمة، وقد فصّل ابن عقيل الزرعي في هذه الصورة واستخدم أساليب فنية متعددة لتصوير منعة حصن صرخد(٤) وعلوّه الشاهق، وذلك إذ يقول(٥):

وسامقـــــــة البنيان سامية الـــذرى يُرى دونها في المَنْعَة القُطـــبُ والنَّســـرُ
تساوي ثراهـــا والثريـــا فخاطبــتْ بروج السّـــما أساس أبراجها الغُــــــرُّ

وقد أبدى الشعراء اهتماماً ملحوظاً بذكر المدن والمواقع التي كان يحتلها الفرنجة ثم استردها المسلمون، وتظهر هذه السمة بشكل جلي عند شهاب الدين

---

(١) ابن عنين، ديوانه، ص٧٦.

(٢) هو (سيد الشعراء) أبو عبدالله محمد بن نصر بن صغير القيسراني، انظر: الذهبي، شـــمس الدين، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرناؤوط، بيروت، ١٩٨٤، ج٢٠، ص٢٢٤.

(٣) ابن القيسرانيّ، أبو عبدالله محمد بن نصير، شعر ابن القيسراني، جمع وتحقيق ودراســة: عادل جابر، الزرقاء، الوكالة العربيّة للتوزيع، ١٩٩١، ص٣٣٥.

(٤) صرخد: بلد ملاصق لبلاد حوران من إعمال دمشق وهي قلعة حصينة، الحمــوي، معجــم البلدان، مادة (صرخد) .

(٥) الزرعي، المختار من ديوان ابن عقيل الزُّرعي، ص١٢.

محمود الحلبي، إذ يرى شفيق الرقب في بحثه[١] بأن الشاعر استطاع رسم لوحات فنية متعددة لها لعل أجملها تلك اللوحة التي وصف فيها حصن المرقب[٢] مصوّرا ارتفاعه الشاهق، ومطاولته نجوم السماء، مشبها إياه وقد لفه الظلام بالغادة الحسناء، ويستطرد في الصورة فيجعل لها النجم الزهر قلادة، والهلال سوارا، والسها شنفاً، والنجوم التي تسمى القلب قُلباً، والدّجى حلّة، فيقول[٣]:

أَوْرَدتَهــا المرقبَ العالي وليس سوى	ماءِ المجرّة في أرجائــــــه نَهَــــرُ
كأنّـــــه وكــــأنّ الجـــوَّ يكنفـــهُ	وَهْـمٌ تمثّــله فــي طيّـــها الفِـــكَرُ
يختال كالغادة العذراء قــد نُظمـــتْ	منه مكان اللآلـــــي الأنجـم الزُّهُــرُ
له الهلالُ سوارٌ والسهّـــا شُـــنفٌ	والقلب قُلــــبٌ ومسوَدُّ الــدجى طُــرَرُ

وصوّر الشعراء في سياق حديثهم عن الحروب التي خاضها المسلمون لاسترداد البلاد المحتلة، التدمير الذي ألحقه المسلمون بتحصينات الفرنجة ومنشأتهم وإحراقهم الأراضي الخاضعة لهم والاستيلاء على زروعهم، ومن ذلك عندما وصف تاج الملوك بوري غارة شنها المسلمون على الشوبك وإحراقهم الزروع التي غرسها الفرنجة، وتدمير ما وقعت عليه أيديهم، ومن ذلك يقول[٤]:

ويوم غارتنـــــا لم أنسهُ أبــــداً	وقد تيقـــّظ قومٌ بعــدما رقـــــــدوا
وأقبــل الشــوبك الممنـــوع جانبـــه	قد أطافت بـــه الطعّــــانة النجـــدُ
ثم اجتنينا ببيض الهنــد مـــا غرســوا	والنار ما زرعــوا فيــه ومـــا حصــدوا
ثم ارتحلنـــــا وخلفنــــا ديارهـــمُ	بلاقعاً لــــيس إلاّ البــــوم والوتــدُ

---

(١) للاستزادة انظر: الرّقب، شفيق، صورة المدينة المحتلة في الشعر الشامي زمــن الحــروب الصليبية، مجلة المنارة، آل البيت، ٢٠٠٠، ص٣٦-٥٧ .

(٢) المرقب: بلدة حصينة تشرف على ساحل البحر الأبيض وعلى مدينة بانيــاس، الحمــوي، معجم البلدان، (المرقب) .

(٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٧، ص٣١٧.

(٤) ابن أيوب، تاج الملوك بوري، ديوانه، تحقيق: محمد عبد الحميد ســالم، القــاهرة، هجــرة للطباعة والنشر، ١٩٨٨، ص١٣٦.

ووصف ابن منير الطرابلسي[١] التدمير الذي أحدثته جيوش نور الدين بانطرسوس[٢] ويحمور، وكثرة قتلى الفرنجة فيها[٣]:

أخلى ديار الشرك من أوثانـــــها حتى غـــــدا ثــــــالوثهنّ نكيـــــرا

رفع القصور على نضـــائد هامهم من بعد ما جعل القصــــور قبـــــورا

بشواحب الألياط تقطوا في الظـــلا م قطاً، وتهوي فـــي الصـــباح نســـورا[٤]

وقد كان للانتصارات التي حققها المسلمون على المحتلين، رنة فرح وسرور تعم مختلف بلادهم، فكانت أنباء الانتصارات تسري في البلدان الإسلامية، إذ بتجدد الانتصارات في أرجاء مدن الشام، تسود البهجة وتكتسي البلاد بأبهى حلل الزينة، وتزف البشائر إلى الملوك والأمراء والخلفاء، مسجلّة فرح المسلمين، وقد خلّد لنا التاريخ والشعر الانتصارات الباهرة بقصائد تزخرّ بمشاعر الفخر والاعتزاز بالقادة المسلمين، إذ أدرك شعراء المواجهة عصر الحروب الصليبية أن العلاج الناجح للداء الصليبي يتمثل في ضمّ صفوف المسلمين وتوحيدها، فقد نمّوا كلَّ ملكاتهم الإبداعية بتنظيم قصائد وأشعار تحرّض على طرد الصليبين وتطهير المقدسات، وكان لفتح الحصون والمدن الإسلامية صداها لدى الشعراء، ولاسيما أن السلاطين والملوك قد غدوا محط رجا الأمة وموطن أملها، فلم يبخل أولئك الشعراء عليهم بالتهنئة، لذلك كثرت في هذا العصر القصائد التي هنّأ بها الشعراء القادة والحكام المخلصين بما حققوه من انتصارات على أعدائهم.

---

(١)هو أبو الحسين أحمد بن منير بن أحمد بن مفلح الطرابسلي الرفا، ولد سنة ٤٧٣هـ وتوفي سنة ٥٤٨هـ من الشيعة الأثنى عشرية، ابن عساكر، تهذيب تاريخ دمشق الكبير، ج٢، ص١٠٠.

(٢) انطرسوس: بلدة من سواحل البحر الأبيض وهي من اعمال دمشق من البلاد الساحلية، الحموي، معجم البلدان، (انطرطوس).

(٣) ابن منير، أحمد الطرابلسي، ديوانه، جمعة وقدَّم له: عمر التدمريّ، بيروت، دار الجيل، طرابلس، مكتبة السّائح، ١٩٨٦، ص٢٢٤.

(٤) الألياط: الجلود، تقطوا: قطا قطواً: قارب في مشيه مع نشاط.

ويبدو مما سبق أن الشعراء الشاميين كانوا يتابعون انتصارات القادة واحدة تلو الأخرى، حتى لأصبح الشاعر يتغنّى بالانتصارات واحداً واحداً دون خلل أو إخلال، لكنّه ليس بمؤرخ للمعارك، ولقد أحس شفيق الرقب المفارقة بين الشاعر والمؤرخ " فالشاعر لم تكن غايته رسم تفصيلات دقيقة للمعارك التي يتحدث عنها ولا استيعاب ما جرى من أحداثها وذلك لسببين : أولهما أن مثل هذا الاستقصاء ليس من غاية الشعر في المقام الأول، وثانيهما أن الشاعر قد لا يكون بين من يحضرون المعركة ليصفها كشاهد عيان، ثم إن المعركة الواحدة قد تختلف عن المعركة الأخرى في مراحل الكرّ والفرّ، وفي الاعتماد على أنواع من الأسلحة دون أخرى، وفي شؤون الكمين والبيات، إلى غير ذلك ولكنّها لدى الشاعر حلقة في سلسلة التحرير ورفع راية الإسلام....." (١).

وتوّسع أسامة بن منقذ في تصوير الوضع النفسي للفرنجة، وحللَّ على نحو دقيق حالة الانهيار التي أصابتهم على الرغم من حصانة مدنهم، وقد صاروا أسرى للتخيّلات المرعبة في النهار، حتى يحسبوا الرُّبا جيوشاً، وأمواج البحر أساطيل متتابعة، فإذا حلَّ الليل أمسوا فريسة للكوابيس النّغصة، وتخّيل السيوف مسلّطة عليهم، يقول(٢):

وقسمتَ الفرنج شطرين فهذا عانٍ وهذا قتيلُ
والذي لم يحن بسيفك من خوٍ فك أمسى وعقله مخبولُ
مثّل الخوف بين عينيه جيشاً لك في عقر داره ما يزولُ
فالرُّبا عنده جيوش وموْج البحر في كلَّ لجة أسطولُ
وإذا ما غفا أقضّ به المضـ ـجع في الحلم سيفك المسلولُ

وقد غلبت المعاني الدينية على الصورة التي رسمها الشعراء للمدن الإسلامية المحررة، فقد دأبوا على تقديمها في إطار يصف عودة الشعائر الإسلامية

---

(١) الرقب، شفيق، الشعر العربي في بلاد الشام في القرن السادس الهجري، ٧٥.

(٢) ابن منقذ، أسامة، ديوانه، تحقيق: أحمد أحمد بدوي وحامد عبد المجيد، القاهرة، عالم الكتب، (د.ت)، ص١٩١.

لها، وتطهيرها من الرموز الدينية للصليبين، فالرشيد النابلسي يصف مدينة القدس بعد استرجاعها من الفرنجة، وقد استهلها بإعلان فرحته بالفتح القدسي، ومن ذلك يقول(١):

هــذا الذي كانت الآمــالُ تنتظـــــرُ   فليوفِ لله أقــــوامٌ بمــا نـــذروا

تجـــلّ علياه عن مــدحٍ يحيــط بــه   وصــفٌ وإن نظــم المدّاح أو نثــرا

لا ترويــنْ لفتوحٍ بعـــدها قصصـــاً   وإن تعاظمَ منــه الخُبْــرُ والخَبــرُ

ولعل الرشيد النابلسي في هذه القصيدة يلجأ إلى التحدث عن النصر المبين الذي لا يخضع للتقريب أو التعليل، ثم يتحدث فيها عن تصارع الأحداث، ودور البطل فيها، والجهود التي بذلها في قتال الأعداء، وانقضاضه عليهم وفتكه بهم، لتظهر صورة القدس بعد الفتح وقد عادت إليها عناصر الجمال:

الآن طـــاب إلــــى البيت المقــدس   كــالبيــت المحرم إحرامُ ومعتمــرُ

يا بهجة القــدس إذ أضحى بــه علمُ الــ   إيمــان من بعــد طيّ وهو منتشــرُ

يا نور مسجده الأقصى وقـــد رُفعــت   بعــد الصليب به الآيــاتُ والســورُ

شتـــان مـــا بين ناقوسٍ يُدان بــــه   وبين ذي منطقٍ يُصغــي له الحجــرُ

الله اكبــــرُ صوتٌ تقشــعر لــــــه   شُــم الذرى وتكــاد الأرض تنفطــر

يا خاطبـــاً جنـــــة الفردوس ممهرها   أجر الجيــاد لنعم الصهّــر والمهــر

إن الرشيد النابلسي ضمّن قصيدته في إطار نسق جميل مترابط يحتــوي علــى أســاليب انفعالية، ومما لاشك فيه أن الصورة الدينية للمدينة تكبر وتتسع على امتداد الأبيات، بحيث امتزجت فيها الأشكال والألوان والأصوات في أشكال حية مؤثرة، فبدا كل ما في المدينة جميلاً مشرقاً، وتصل عناصر الجمال إلى قمتها حين تتمثل القــدس فــي صــورة جنــة الفردوس التي خطبها صلاح الدين وبذل رباط الخيل مهراً لها.

واهتمَّ العماد في إحدى قدسياته بتصوير انتقال القدس من حال إلى حال، والثناء على الرجل الذي نذر نفسه لتحريرها، وذلك إذ يقول(٢):

---

(١) الحنبلي، أحمد بن إبراهيم، شفاء القلوب في مناقب بني أيّوب، تحقيق: ناظم ارشيد، بغــداد، وزارة الثقافة، ١٩٧٨، ص١٦٦ – ١٦٧.

(٢)الأصفهاني، ديوانه، ص٢٣٦ – ٢٣٠ .

فلا يستحق القدس غيرك في الورى فأنت الذي من دونهم فتح القدسا
ومن قبل فتح القدس كنت مقدّساً فلا عَدَمتْ أخلاقُك الطهرَ والقدسا
وطهَّرته من رجْسِهِمْ بدمائهمْ فأذهبت بالرّجس الذي ذهب الرّجسا
نزعتَ لباسَ الكفرِ عن قدسِ أرضها وألبستها الدين الذي كشفَ اللبسا
وعادتْ ببيت الله إحكام دينه فلا بطركاً أبقيتَ فيها ولا قسّا

إن الشاعر هنا يمزج بين صورة القدس وصورة البطل الفاتح، إذ قابل بينهما في القداسة والطهر، غير أنه لم يكن معنياً بالتصوير عنايته بتشقيق الألفاظ والمعاني واستدعاء والطباق والجناس والتكرار والكلمات ذات الدلالة الدينية، بيد إن البيت الرابع لا يخلو من اللمحات التصويرية الذي جسد فيه المعنى المجرد ووضعه في صورة حية دالة.

أما فتح الرها سنة ٥٣٩هـ، أول نصر كبير يحققه المسلمون، وأول هزيمة كبرى تلحق الأذى بالصليبين، فقد كان لفتحها أثر كبير في نفوس المسلمين، إذ غرس بذور الأمل فيها وطغت عليها الفرحة وغمرتها البهجة فأقبل الشعراء يلونون بكلماتهم المشرقة، لوحة جميلة لمعالم تلك الفرحة ولعل أبرز المهنئين كان ابن القيسراني الذي استهل قصيدة، تغنى بقوة السلطان عماد الدين واتخذ السيف رمزاً للقوة فيقول[1]:

هو السيف لا يُغنيك إلاَّ جلادهُ وهل طوّق الأملاك إلاَّ نجادُهُ
سمتْ قُبةُ الإسلام فخراً بطوله ولم يكُ يسمو الدينُ لولا عمادُهُ
وفتحٌ حديثٌ في السماعِ حديثُه شهيٌّ إلى يومِ المعادِ معادُهُ

فالشاعر هنا يؤكد على سمو قبة الإسلام التي ازدادت شموخاً وفخراً بالنصر، حتى غدا حديث النصر حلو المذاق، شهي ممتع، سائغ في القلوب والأسماع، لا يمل

---

(١) ابن القيسراني، شعر ابن القيسراني ، ١٤٨، وانظر: أبو شامة، الرّوضتين في أخبار الدولتين: النوريّة والصلاحيّة، ج١، ص٣٧، وانظر: الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء الشام، ج١، ص١٥٤.

المسلمون تكراره وإعادة ذكره، ثم يعتبر الشاعر فتح الرُّها إيذانا بأفول النجم الصليبي وبشّر بزوال وجود الصليبين.

ويصور الشاعر مدينة الرُّها غير حَصْان على مدى خمسين عاماً، وكيف أن عماد الدين افترعها عنوة، وذلك يقول :

مدينةُ أفكٍ منذ خمسين حجـــــةً يَفُـلُّ حديـدَ الهنـدِ عنهـا حُـدادُهُ
وجامحـــةٌ عزَّ الملوكَ قيادُهـــــا إلى أنْ ثنـــــاها من يعـزُّ قيـادهُ
فصدّتْ صدُودَ البكر عند افتضاضها وهيهات كانَ السَّيْفُ حتمـاً سـفادهُ

وعقب استيلاء نور الدين على قلعة منبج سنة ٥٦٣هـ هنأه العماد الأصفهاني بقصيدة حثّه فيها على التوجه بسرعة لتطهير القدس وتحريرها، وغرس رايات الإسلام فوق طرابلس ونابلس، ومن ذلك يقول[١]:

بشرى الممالك فتح قلعـــــة منبج فليهـن هذا النـــصر كـل متـوج
أعطيت هذا الفتـح مفتاحـــــاً به في الملـك يفتح كل بـــــاب مرتج

وفي سنة ٥٧٥هـ آلت قيادة حركة الجهاد ضد الصليبيين بعد رحيل نور الدين للناصر صلاح الدين، فحقق على يديه أكبر الفتوحات، إذ جمع جموعاً كثيرة من الخيّالة والرجالة وتوجه إلى حصن بيت الأحزان[٢] وحرره من الغزاة ففرح المسلمون بذلك، واقبل الشعراء ينظمون القصائد ومن أبرزهم نشوء الدولة أحمد بن نفاذه الدمشقي فيقول[٣]:

هلاك الفرنـج أتـى عـــاجـــلاً وقد أن تكسـير صلبانـــــــها
ولو لم يكن قد دنـــــا حتفهـــا لما عمّرت بيـت أحزانـــــها

وقد أشار أبو شامة المقدسي في كتابه الروضتين، أن سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م، هي سنة الفتوحات الإسلامية، ولعل أول ما طالعنا الشعر عليه من

---

(١) أبو شامة، الرّوضتين في أخبار الدولتين: النوريّة والصلاحيّة، ج١، ص١٥٠.
(٢) بيت الأحزان: مخاضة على نهر الأردن، الحموي، معجم البلدان، (بيت الأحزان).
(٣) أبو شامة، الرّوضتين في أخبار الدولتين: النوريّة والصلاحيّة، ج٢، ص١١، ٢٠٩، وانظر: الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء الشام، ج١، ص٥١٩.

انتصارات، كان استرداد طبرية[1]، فقد انشد ابن الساعاتي قصيدة في هذه الموقعة مطلعها[2]:

جَلَتْ عزماتُك الفتـــحَ المبينـــا   فَقَد قَــرِّتْ عيــونُ المسلمينـــــا
رددتَ أخيــذة الإســـلام لمّـــــا   غدا صرف القضاء بها ضمينــــا
وهاب بك الصليب وكان قدمـــا   يغر على العوالي أن يهونـــــا

ويشكل نص ابن الساعاتي لوحة فنية جميلة بما تكتنزه من فخر وتهنئة، إذ تحدث في الشطر الأول عن الفتح المبين الذي حققه جيوش المسلمين، فبهذا الفتح تحولت المدينة إلى قرة أعين لجميع المسلمين بعدما كانت تحت حصار الصليبيين الذين عاثوا فيها فساداً وقتلاً وتشريداً، فتحولت الصورة هنا إلى مكان مطمئن يستقطب الناس إليه فرحاً بالانتصار، ويتابع ابن الساعاتي لوحته الفنية، وذلك بعدما ابتدأها بالدعاء والرضاء، يربط الشاعر بين المدينة والمرأة فيقول :

وما طبريــــــةٌ إلاَّ هَـــــديٌ   تَرّفَــعُ عـــن أكـــفِّ اللامســـينَا
حَصانُ الذيلِ لم تُقْذَفَ بسوءٍ   وَسَـــلْ عنهـــا الليـــالي والســـنينَا
فَضَضَتْ ختِامَها قَسْراً فَمَنْ ذا   يَصـــدَّ الليـــثَ أنْ يَلِـــجَ العَرِينـــا
لَقَدْ أنكحتْهـــا صُـــمْ العوالـــي   وكـــان نتاجُهـــا الحـــربَ الزَّبُونـــا
قَسَتْ حتى رَأتْ كفئـــــأً فــلانتْ   وغايـــةُ كـــلِ قـــاسٍ أنْ يلينـــا
قَضَيَتْ فريضةَ الإســـلامِ منهـــا   وصـــدّقتَ الأمـــاني والظُّنونـــا

فالنظرة التي يراها الشاعر هنا، هي صورة مدينة طبرية التي أصبحت أشبه بالفتاة البكر العفيفة، لم تقذف بسوء، فلا يمكن للشاعر أن يصورها مبتذلة لكل فاتح متغلب وذلك ليجعلها عروساً لبطله المسلم، وكأن الشاعر أراد أن يرصد لنا جمالية الفتح، بصورة مرتبطة بحالته النفسية وذكرياته الماضية، فجماليات الصورة تتشكل

---

(١) أبو شامة، الرّوضتين في أخبار الدولتين: النوريّة والصلاحيّة، ج٢، ص٧٥.
(٢) ابن السُّاعاتي، عليّ بن رستم، ديوانه، تحقيق أنيس المقدسيّ، بيروت، المطبعة الأمريكيّــة، ١٩٣٨، ج٢، ص٤٠٦.

من خلال تجربة الشاعر فيها لأنها مسرح أحداثه ومستودع أماله وآلامه، فكان يتشوق إلى مدينة طبرية قبل احتلالها من خلال علاقته بإنسانها وأهلها وأجوائها، بمعنى أن المدينة كانت تكتسب قيمة عند الشاعر بمقدار ارتباطه بتجربته وأيامه وذكرياته فيها، وكلما كانت المدينة محببة للشاعر كلما ازداد حضورها في فكره ووجدانه، واحتلت مساحة واسعة من اهتمامه وعنايته.

ونرى هذا المشهد مماثلاً عند شهاب الدين محمود، في صفه لفتح مدينة طرابلس بعد أن استردها المسلمون بقيادة الملك المنصور بن قلاوون، فقد ظهرت المدينة في صورة فتاة ممنعة تعاونت على اقتحامها عزيمة الممدوح، ويلاحق الشاعر الصورة الأنثوية فيصف المدينة بأنها بكر، وأنها لحظة فتحه لها (انثنت تميد)، فيقول:

ممنعةٌ بكرٌ وهل في جميـــــع ما تملّـــــــكته إلا ممـنعـــةٌ بكـــرُ
فكم مرَّ من دهرٍ ومـــــا مسَّها أذى وكم راح من عصرٍ وما راعاها حصرُ
ففاجأتهـــــا بالجيش كالمــوج فانثنتْ تميدُ وقد أربى على نحرها السَّبـــــرُ
فزلزلتـــــها بالركض فانهــدّ ركنهــا ولم يبــق من دون المنايا لهـــا ســترُ

أن صورة المدينة وتفاصيلها تختلف عندما تكون المدينة المفتوحة في حوزة أحد حكام المسلمين، فعندما بذل مجير الدين صاحب دمشق الطاعة لنور الدين الزنكي، وتقرر الصلح بينهما سنة ٥٤٥هـــ، انشد ابن القيسراني قصيدة رسم فيها صورة محببة لدمشق، فقد جرى البناء بها وفق الشريعة الإسلامية، إذ خطبها نور الدين ووافق وليها على ذلك، وقد قدّم إليها مهراً كبيراً من الآمن والعدل، وأصبحت على مر الأيام تسر حباً لنور الدين، على الرغم من امتناعها عنه في البداية وذلك دلالاً منها، فيقول[١]:

خطبتَ فلمْ يحجُبك عنَّها وليّها وخطبُ العُلى بالسيف ما دونــه ســترُ
جلاها لك الإقبال حورية السنّا عليهــا من الفــردوس أردية خضــر

---

(١) ابن القيسراني، شعر ابن القيسراني، ص١٩٤

خلوبٌ أكنّتْ من هواك محبةً نَمَتْ فانتّمتْ جهراً، وسرُّ الهوى جهرُ
فسُقْتَ إليها الأمنَّ والعدلِ نحلةً فأمستْ ولا أسـرٌ تخـافُ ولا إصـرُ
فإنْ صافحتْ يُمناكَ من بَعْد هَجْرها فأحلـى التـلاقي ما تقدمـهُ هجرُ
وهل هي إلاّ كالحصان تمنَّـعتْ دلالاً، وأن عـزَّ الحـيا وغلا المهـرُ
ولكنْ إذ ما قستـها بصداقـها فليس لـه قدرٌ وليـس لـه قـدرُ

وكذلك مدينة حلب نراها عند ابن الساعاتي عقيلة بكراً، جميلة القدّ، أسيلة الخد، عفيفة مصونة عن البذل، وينفذ الشاعر إلى معنى دقيق لأنها لم تعص صلاح الدين تمنعاً وتأبياً، وإنما غضبت وغارت لأنه أهملها واهتمَّ بغيرها من المدن الشامية، فيقول(١):

هي العقيلة حُسنا والزمان بها متيَّم كَلِفُ الأحشـاء غيـر خلـي
رشيقة القـدّ لا تسمو إليه يدٌ أسيلة الخـدّ لا تـدنو مـن القبـلِ
بكـر المعاقل فاخطبها مكابرة بكلّ ألمـى أصم الكعـبِ معتـدلِ
فما سواك لها بَعْل وقد عطلتْ فَحَلهـا بتلافيهـا من العطـلِ
غارتْ، وحقَّك، من جاراتها فشكتْ ما باله بافتضاضـي غيـر محتـفلِ

وعن الحديث عن وصف المدن المحتلة، لابدّ من التطرق إلى بعض الصور لحياة الفرنجة في هذا العصر، إذ نقل المؤرخون والكتّاب المسلمون زمن الحروب الصليبية صوراً مختلفة من حياة الفرنجة في المدن التي استولوا عليها، وسجلوا صوراً متفرقة من سمات الإفرنج وصفاتهم في الشعر والنثر، ومظاهر السلوك اليومي التي كانوا يمارسونها، ولعل اغلب تلك المظاهر مما وقع ضمن مشاهدات بعضهم، لاسيما ابن جبير وأسامة بن المنقذ اللذان دخلا البلاد المحتلة ولمسا جوانب

---

(١) ابن الساعاتي، ديوانه، ج٢، ص٣٨٣.

من عادات القوم وتقاليدهم[١]. ومن الشعراء الذين دخلوا تلك البلاد ابن القيسراني، فقد ذكر العماد الأصفهاني نقلاً عن الفقيه عبد الوهاب الدمشقي أن هذا الشاعر دخل " سنة أربعين وخمسمائة بلد أنطاكية لحاجة عرضت له، فنظم مقطعات يشبب فيها بإفرنجيات..." [٢]، وأطلق على هذه المقطعات اسم "الثغريات".

إن الأشعار التي قالها ابن القيسراني في البلاد المحتلة، من حيث المضمون، تُغني الصورة التي رسمها المؤرخون للحياة الاجتماعية للفرنجة، فقد نقل فيها صوراً من حياتهم في كمجالس لهوهم وأعيادهم وكنائسهم وأديرتهم، ولو تتبعنا الطريق التي سلكها الشاعر لأمكننا إن نقول إن أولى ثغرياته تلك التي قالها وقد اجتاز بلدة عزاز[٣] من ضواحي حلب، ويظهر منذ البداية انبهار الشاعر بالنساء الصليبيات، فيصف حسن وجوههن وجمال عيونهن، واعتدال قامتهن، ودقة خصورهن، وطرقة تسريحهن لشعورهن، إذ يقول[٤]:

أين عزّي من روحتي بعزاز ... وجوازي على الظّباء الجوازي
واليعافير ساحبات المغافـ ... ـرَّ، علينا كالرّبرب المجتازِ
بعيون كالمرهفات المواضي ... وقدودٍ مثل القنا الهزّازِ
ونحورٍ تقلدت بثغور ... ريقها ذوبُ سكّر الأهوازِ
ووجوهٍ لها نبوّةُ حسنٍ ... غير أنّ الإعجاز في الأعجازِ
وسبتني لها ذوائبُ شعرٍ ... عقدتها تاجاً على أبروازِ

---

(١) للاستزادة انظر تفصيل ذلك في: الرّقب، شفيق، صور من الحياة الاجتماعية للفرنجة في النثر الفني زمن الحروب الصليبية، مجلة دراسات الجامعة الأردنية، المجلد٢٣، العدد٢، ١٩٩٦، ص ٣٣٥ – ٣٥٠.

(٢) لأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء الشام، ج١، ص٩٩.

(٣) عزاز: بلدة شمال حلب، الحموي، معجم البلدان، (عزاز) .

(٤) ابن القيسراني، شعر ابن القيسراني، ص٢٤٩.

ونمضي مع الشاعر في رحلته نحو الأثارب – بين حلب وأنطاكية، فيصف نساءها الجميلات في مقطوعة شعرية تشي بميل الشاعر إلى التعابث[1]، ويقف بعد ذلك على حانة بجسر الحديد على باب أنطاكية، وتحدّث في مقطوعة شعرية عن لهوه فيها، وتمتعه بخمرها ومغازلته خماراتها، إذ يقول[2]:

إن كـــان لابدّ من الســـــُّــكْرِ فمِـــنْ يَـــديْ خَمّـارةِ الجِسْـــــر
خمّـــــارةُ تُطلـعُ من نَحرِهـا جُمّــارةً بيضــاءَ مــن نَــحْـــرِ
تُمسي فتُمسي الرّاحُ في راحها تهـدي سـنّا الشَّمـس إلـى البـدرِ
حتَّـــى إذا دارتَ على شَرْبها ألحاظُهـا أغَنْـت عـن الخَمْـــرِ
ما زرتُها إلا وباتَتْ يدي أوْلـى مـن الزنّـــارِ بالخَصــرِ

ويدخل شاعرنا أنطاكية ويسجل بعض خواطره وتجاربه فيها، فقد رأى من مولداتها اسمها "ماريا" من أحسن الناس خلقاً وخُلقاً تغني بالدف لتغايظ النصارى وتستميل قلوب المسلمين، إذ يقول[3]:

علقتُ بحبــلٍ من حبـــال محمدٍ أمنــتُ بــه مــن طــارق الحــدثان

ويتجول الشاعر في شوارع أنطاكية فيصف جمال بنيانها، وروعة قصورها ويطرب لما يراه من فتنة صارخة، فيحدق النظر في نوافذ المنازل لاستجلاء طلعات الحسان، ومن ذلك يقول[4]:

واحربا في الثغـــور من بلـــدٍ يضحــكُ حسـناً كأنّـــه ثَغَـــرُ
به قصـورٌ كـأنّهـــا بيـــعٌ ناطقــةٌ مـــن خلالـها الصـورُ
هـــالاتُ طاقــاتهن آهلــــــةٌ يَبْسـمُ عـن كـل هـــالةٍ قمـــرُ
ســـــوافرٌ كلمـــا شَعرَن بنـــا برقعُهـــنّ الحيـــــاءُ والخفـــرُ

---

(١)ابن القيسراني، شعر ابن القيسراني ، ص١٠٨.
(٢) المرجع نفسه، ص ٢٣٩.
(٣)المرجع نفسه، ص١٨١.
(٤) المرجع نفسه، ص٢١٢.

من كلّ وجـــهٍ كأنَّ صورتـــه بـــدرٌ، ولكـنّ ليـله شعـــــرُ

أما الكنائس فيقف الشاعر عندها طويلاً، إذ غدت الكنائس في نظره معارض للجمال الوافد فيتعمد دخولها، ليتصيد لقاء الحسان فيها، دون أن يفرق بين راهبة وقدّسية ومصلية، ويصفهن وقد ارتدين المدارع ووضعن في أوساطهن الزنانير فيقول(١):

كـم بالكنـــائـس من مبتّلـــــة مثـــل المهـــاة يزينهـــا الخَفـــرُ
مـــن كـــل ساجـــدةٍ لصورتهـــا لـــو أُلصقتْ سجـدتْ لها الصُّـــورُ
قدّيسةٌ فـــي حبـــــل عاتقهـــا طـــولٌ، وفي زُنّارهـــا قِصـــَرُ
غرس الحيـــاءُ بصحن وجنتهـــا ورداً ســـــقى أغصـــانـــه النُّظرُ
وحكتْ مدارعهـــا غدائرهـــا فـــأراك ضعـــفـــي ليلـــــةِ قمـــرُ

وبعد،،،،

هكذا ظهرت صور المدينة المحتلة في الشعر الشامي، تتراوح ما بين الهبوط والصعود فتارة نجد لوحات فنية سوداوية تتسم بالمعاناة والكآبة، لما آلت إليه المدينة التي اختفت جمالياتها، نتيجة الدمار الذي أصابها، والتشويه الذي ألحق الأذى في معالم القداسة فيها، مما اضطر الناس إلى الرحيل من تلك المدن بحثاً عن الملاذ والأمن، وتارة أخرى نرى الشاعر يرسم لنا لوحات ناطقة تشي بتفاعل الشاعر مع هذه الأمكنة، نتيجة للانتصارات التي حققها المسلمون، وتصوير أجواء الفرح والسرور التي عمتها، والربط المتكرر بين المدينة المفتوحة والمرأة، كما نقل لنا الشعر صوراً تمثل بعض المعالم الدينية والعمرانية والاجتماعية للفرنجة في المدن التي استولوا عليها واستوطنوا فيها.

---

(١)ابن القيسراني، شعر ابن القيسراني، ص٢١٥.

الفصل الثاني
هجاء المدن

١.٢ هجاء المدن

احتل شعر الهجاء حيزاً كبيراً من شعر القرن السادس والسابع الهجريين، ولم يكن هجاء المدن ظاهرة جديدة على شعر هذا العصر، إذ عرف واشتهر في عصور سابقة[١] وهذا ما أكدّه مصطفى هدارة عندما عدّ هجاء المدن وذمها، من الألوان الجديدة في فن الهجاء الذي ظهر في القرن الثاني الهجري[٢]، واستمر الشعراء في هذا العصر على نهج سابقيهم.

ازدهر هذا الفن وتنوعت أغراضه، فنجد بعضه جاداً لا أثر لروح الدعابة والنكتة فيه، ونجد الهجاء الساخر الذي ظهرت عليه مظاهر التطور في الشكل والمضمون، وتراوح هذا التطور بين الهبوط إلى درجة السباب والفحش والابتذال، وبين التصوير الهزلي الساخر الذي يهدف إلى النقد عن طريق الإضحاك.

أما دوافع هجاء المدن في هذا العصر، فقد تعود إلى موقف شخصي، ونزوع ذاتي، وقد تعود إلى عوامل اجتماعية نتجت عن علاقة الشاعر بالمدينة وسكانها، وما نتج عن هذه العلاقة من موقف عدائي – أحيانا – فقد يدفع ضيق حال الشعراء إلى ذم المدينة، وانتقاد لقيم سكانها وسلوكياتهم.

كانت دمشق من أكثر المدن تعرضاً للهجاء، فقد نسج ابن عنين كثيراً من القصائد والأشعار في السخرية والانتقاص من قدر أهلها، ويعد ابن عنين من أشهر شعراء الهجاء والنقد الاجتماعي البارزين زمن الحروب الصليبية في بلاد الشام، فقد تميز شعره بقيامه على النظرة الهجائية، وقد أشارت المصادر إلى تأصل هذه النزعة فيه وولعه بالهجاء وثلب أعراض الناس[٣] وانه قلّ أن سلم أحد من الرؤساء

---

(١) انظر: حسين، الهجاء والهجاؤون في صدر الإسلام، ص٣٤ – ٤٠،

(٢) هدراة، محمد مصطفى، اتجاهات الشعر في القرن الثاني الهجري، دار المعارف، مصر، ١٩٨١م، ص٤٣٠.

(٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء الزمان، ج٥، ص١٤.

والملوك وأرباب العلم والمناصب من لسانه[١]. وقد وصفه معاصروه بأنه سخيف اللسان، قبيح الهجاء، أغري بهجاء الناس وتمزيق أعراضهم[٢]، حتى أنه نظّم في أهل دمشق قصيدة طويلة سمّاها (مقراض الأعراض) [٣]، تناول فيها شخصيات اجتماعية متعددة من فقهاء وخطباء وقضاة وقد أفحش في أبيات هذه القصيدة متجاوزاً حدود العرف والذوق[٤].

ولعل هذا يعود إلى إحساسه بالنقص، فقد نشأ في أسرة ضئيلة، لم تربّه، كما يقول على فعل الخير، ويتضح ذلك في قوله[٥]:

وجَنّبني أنْ أفعلَ الخيرَ والدٌ ضئيلٌ إذا ما عُدّ أهلُ المناسبِ
بعيدٌ عن الحُسنى قريبٌ من الخنا وضيعُ مساعي الخيرِ، جمُّ المعايبِ
إذا رُمتُ أن أسمو صعوداً إلى العُلى غدا عِرقُهُ نحو الدنيّةِ جاذبي

وكان ابنُ عنين قد أكثر من التجوال والتطواف في البلدان، واطّلع على كثير من مظاهر الحياة، والمفاسد والانحرافات في السلوك الإداري والسياسي والاجتماعي آنذاك، بالإضافة إلى ملابسته لحياة العلماء والفقهاء في مجالسهم وحلقاتهم، ووقوفه على مظاهر شتى، حتى تنوعت النماذج البشرية والمظاهر الحياتية التي هجاها ابن عنين في دواوينه.

ولعلّ ذم الشعراء لمدينة دمشق يعود إلى أسباب سياسية تتعلق بالسياسة، إذ بعد وفاة السلطان صلاح الدين، كان المشهد السياسي في بلاد الشام مجالاً من مجالات السخرية والهزل في شعر ابن عنين، لاسيما الصراع الذي نشأ بين أبنائه

---

(١) ابن الشّعار، قلائد الجمان من شعراء هذا الزمان، ج٦، ص١٩٩

(٢) باشا، عمر موسى، الأدب في بلاد الشام في عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك، المكتبة العباسية، دمشق، ١٩٦٤م، ص٣٥٧.

(٣) الصفدي، الوفي بالوفيات، ج٥، ص١٢٢.

(٤) ابن عنين، ديوانه، ص١٧٩ – ١٨٤.

(٥) المرجع نفسه، ص٢٣٩.

على الخلافة، فهذا الاضطراب السياسي دفع الشاعر إلى الزهد في سكنى دمشق، وتفضيل الإقامة بعيداً عنها، حتى لا يكتوي بنار القائمين عليها فيقول[1]:

وتقول أهل دِمشقَ أكرمُ معشرٍ وأَجلُّهم ودِمشقُ أفضلُ منزلِ
وصدقتَ إنَّ دمشقَ جنةُ ال(م) دنيا ولكنَّ الجحيمَ أَلَذُّ لي
لا الحاكمُ المصريُّ يَنْفُذُ حكمهُ فيها عليٌّ ولا العَواني الموصلي[2]
هيهاتَ أن آوي دمشقَ وملكُها يُعزى إلى غير المليكِ الأفضلِ[3]
ومن العجائِب أن يقومَ بها أبو بكرٍ وقد علمَ الوصيةَ في علي[4]
مهلاً أبا حسنٍ فتلك سَحابةٌ صيفيةٌ عمَّا قليلٍ تنجلي

ففي هذه المقطوعة لم تفارق ابن عنين النزعة الهجائية، واستغلاله الأحداث السياسية التي يستخلص منها معاني هزلية قائمة على تصوير التناقضات في بعض الأحوال السياسية، ولاسيما أن الأبيات تخفي وراءها إحساساً بالغربة والمعاناة إذا بقي في دمشق.

أمّا صورة حلب، فتبدو أوضح في هجاء ابن عنين، حيث يتسلسل الشاعر في عرض المفردات للمدينة التي تجعل في النهاية صورة حلب، قد لفت بكل ما يأنفه الإنسان حيث يقول[1]:

---

(١) ابن عنين، ديوانه، ص٨٥.

(٢) يريد بالحاكم المصري: جمال الدين يونس بن بدران بن فيروز المصري قاضي قضاة في دمشق توفي سنة ٦٢٣هـ . ويريد بالموصلي: المبارز إبراهيم بن موسى المعروف بالمعتمد أصله من الموصل وقدم الشام وصار شحنة دمشق واستقر فيها أربعين سنة وكان محمود السيرة توفي سنة ٦٢٣هـ. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص١٥. أما لفظة العواني: فهي عامية وما زال أهل دمشق ينبزون بها من لا يؤمن شره من أعوان الحكومة ولعل أصلها أعواني نسبة إلى أعوان الحكومة، وللأعوان معنى آخر أيضاً فمن أمثال العرب " إذا جاءت السنة جاء معها أعوانها " يعنون بالسنة الجدب وبالأعوان الجراد والذباب والأمراض.

(٣) الملك الأفضل: هو علي بن السلطان صلاح الدين.

(٤) أبو بكر: الملك العادل، وعلي: الملك الأفضل، ويشير بذلك إلى أخذ الملك العادل دمشق من ابن أخيه الملك الأفضل سنة ٥٩٢هـ.

لا عَادَ في حَلَب زَمَانٌ مـرّ لـي ما الصُّبحُ فِيهِ مـن المَسـاءِ بأَمثَـلِ
سيان في عرصاتها رأد الضحى عِنـدي و ديـجورُ الظَّـلامِ المُسبلِ[٢]
في مَعشَرٍ لَعَنُوا عَتيقاً لا سُقُوا صَوْبَ الغَمَامِ وَمَعشَرٍ لَعَنُوا عَلي
قومٌ عهودٌ رجالهم محلولةٌ أبداً وعهدُ نسائهم لم يُحلَلِ
من كلِّ مائسةِ القوامِ رشيقةٍ رُودِ الشبابِ كدميةٍ في هيكلِ
خطيةِ الخطواتِ يثني قدّها مرحٌ فيهزأُ بالوشيجِ الذُبّلِ

فالأبيات يمتزّ فيها الهجاء السياسي في أهل حلب، وقد نفذ من ذلك إلى السخرية من تشيعهم، منكراً عليهم لعنهم للصحابة، وصعّد الشاعر من نغمة الهجاء لأهل المدينة عندما صوّر فساد نسائهم.

ويبدو من أبيات ابن عنين، أن نفسه كانت تمتلئ غيظاً، ممّا جعله يهدد أهل المدينة بحملة هجائية ضارية، يتداولها الناس فيما بينهم، وقد تجاوز الشاعر هذا إلى الفحش في القول، والطعن في أعراض أهل المدينة، في أواخر الأبيات فيقول:

ولسوف أُعربٌ من غريبِ صفاتِهم مستأنفاً ما فاتَ في المستقبلِ
بقلائدٍ ما أُنشدت في محفلٍ إلاّ وكانت عُقلةَ المستعجلِ
شِعرٌ يقطّعُ بالنعالِ أَخادعَ الأ (م) عشى ويحرا في عوارضِ جَرولِ[٣]

أما فتيان الشاغوري فقد ركّز في هجاءه لمدينة دمشق، على شيم أهلها واتصافهم بالبخل، وقلة الإحسان، ومما قال فيهم، مشهرّا ببخلهم الذي قصر عن بيوت الله[٤]:

أهلُ دمشقٍ لهمُ جامعُ لَيسَ على ما فَيهِ تَعويلُ
بالجامعِ الصحنُ ولكنّهُ من كلِّ ما يُؤكَلُ مَغسُولُ

---

(١) ابن عنين، ديوانه، ص٢٣٠.
(٢) رأد الضحى: وقت ارتفاع الشمس وانبساط النور في أول النهار، والديجور: الظلمة الشديدة.
(٣) الأعشى: ميمون بن قيس الشاعر الجاهلي المشهور، وجرول: هو الحطيئة الشاعر المخضرم المشهور.
(٤) الشاغوري، ديوانه، ص٣٦٢.

وَفِيــــهِ أشـــــجارٌ ولكنّــــــها   لــم يــُجنَ مِنـــــها الدَّهرَ مأكــولُ

ومن الملاحظ هنا إن هجاء فتيان الشاغوري هذا ناتج عن موقف شخصي، إذ أنه لم يلق فيها حفاوة وإكرام كما كان يتوقع، وهنا الشاعر يبعث في نفسه التعجب من بخلهم وعدم إكرامهم، فهم يمتلكون الأشجار المليئة بالثمار، ولكنها لم تُجن دلالة على إلصـــاق صفة البخل بأهل دمشق، ويأسى الشاعر في موطن آخر من ديوانه، من تجاهل أهل دمشق له وإغضائهم عن محاسنه بقوله[1]:

أراني غَرِيباً في دِمَشْــقَ، وأهلُهــا   بصيرونَ بي لكنْ عَموا عن محاسني

فيا ضيَعتَي فيهم وفَضلَي ظاهـــــرٌ   كأنّي لديهم مصحَــفٌ عِــندَ بــاطني

هنا يشكو الشاعر غربته عن دمشـــق وأهلهـــا، الــذين تجــاهلوا محاســـنه وأضاعوها بالنزاعات الشخصية، فهو يستشعر الغربة والوحدة في دمشق.

وتتعرض دمشق لمثل هذا الهجاء من قبل ملك النحاة الحسن بن صافي[2]، إذ كان " مرّ الشتيمة "[3] تبرم من دمشق، وعبّر عن كرهه برغبته في الرحيل عنهـــا، حيث لم يعد يحتمل ماءها وهواءها الفاسدين، فهو لا يقيم على قذىً في دمشق وذلك يقول[4]:

لأُرَحَّــلنّ مطيتّـــــــي عَــن بـَــــلَدَةٍ   شَعثَاءَ يُكــرَهُ مــــاؤها وهواؤهـــــا

لأرمينّ دِمَشـــــقَ غَـيرَ مُجحـــّــفٍ   بفواقــرَ التبست لهــا أبناؤهـــــا[5]

لأَزجُرَنّ العِيسَ عنَــها مُعـــــرِضَـــاً   إن أَقـــــدَرَتني دَولـَـــةٌ ولواؤهـــــا

فإلام أغضي في دمشـــق علـــى قــذىً   والأرض نازحة بهـــــــا أرجاؤهـــا

---

(١)الشاغوري، ديوانه، ص٥١٨.

(٢) الشاعر هو الحسن بن صافي المعروف بملك النحاة ولد ببغداد ثم دخل الشـــام واســـتوطنها توفي سنة ٥٦٨هــ، ابن عساكر، تهذيب تاريخ دمشق الكبير، ج٤، ص١٦٩.

(٣) الأصفهاني، العماد، خريدة القصر وجريدة العصر، قسم العراق، تحقيــق: محمــد بهجــة الأثري، وجميل سعيد، مطبعة المجمع العلمي، العراق، ١٩٥٥، ج٣، ص١٣٦.

(٤) المرجع نفسه، قسم العراق، ج٣، ص١٢٤.

(٥) مجحّف: بالتضعيف: مضرّ، الفواقر: الدواهي.

بعد تسليط الأضواء على ذمّ دمشق وأهلها، لم يتوان الشاعر ليذم مناخها وطبيعتها، فسخط الشاعر على أهل دمشق، دفعه إلى تشويه المشهد الطبيعي للمدينة، فنعتها بأنها شعثاء يكره ماؤها وهواؤها، لذا فهو عازم على الرحيل من هذه المدينة، باحثاً عن مأوى آخر، مهدداً أبناءها بقصائد (فواقر) تقصم ظهورهم.

وأكثر ابن دنينير[١] من هجاء أهل دمشق، لأنه لم يلق منهم التقدير الذي يعتقد أنه يستحقه، وكان شديد الوطأة في الهجاء، على نحو ما نرى في الأبيات التالية التي يصفهم فيها بأنّهم مطبوعون على اللؤم والجهل والبخل وقول الزور، ومفطورون على فساد الأخلاق وانعدام الغيرة على الأعراض فيقول[٢]:

لم أجد بالشّام من يرجى له ... جودُ كفّ لفتيل أو نقيرْ

خُلقوا للؤمِ طُرّاً والخَنى ... ومقالِ الزّور والجهل الغزيرْ

ودمشقٌ جنّةٌ قد مُلئت ... من أهاليهم بأربابِ السعيرِ

لا يجودون بمال أبداً ... بل يجودون بربات الخدور

ما يرى العافون حظّاً لفمٍ ... عندهم، بل عندهم حظّ.....

وقد اتخذ ابن منير الطرابلسي الدافع المذهبي وسيلة لهجاء دمشق وأهلها،وقد وُصف بأنه كان " خبيث اللسان، مهيناً لأعراض الرجال، يسهل عليه الهوان، ولا يسلم أحد من هجائه.... "[٣] ومن ذلك القصيدة التترية التي تحدث فيها بأسلوب هزلي، عن بعض معتقدات الشيعة، إذ يحمل فيها على أهل دمشق، وجرّدهم من القيم

---

(١) هو إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن علي بن هبة الله بن يوسف بن نصر بن احمد اللخمي القابوسي الموصلي. انظر: الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٩٧٩، ج١، ص١. ابن دنينير، إبراهيم بن محمد بن إبراهيم، **ديوانه**، تحقيق: محمود شاكر سعيد، جامعة الأزهر، القاهرة، ١٩٨١، ص٦٠٦.

(٢) ابن دنينير، ديوانه، ص٦٠٦، وللاستزادة انظر: ص٥٩، ١٩٨، ٦٥٦.

(٣) العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج١٥، ص٣٠٥.

والفضائل، فوصفهم بالضلال وضعف الدين والطيش، إلى غير ذلك من الصفات التي تزري بهم، فيقول(١):

وأعنتٌ ضُلّال الشـآم على الضـلالِ المشتـهرْ
وسكنتُ جلّقَ واقتـديـتُ بهم وإنْ كانـوا بَقَـرْ
بـقرٌ تـرى بحلـيمهم طيشَ الظليـم إذا نَفَـرْ
وهواؤهـم كهوائهـم وخليـطُ مائـهمُ القـذرْ
وعليمُهـم مستـجَهل وأخو الديانـةِ محتَقَـرْ
وخفيفُهـمْ مستثـقلٌ وثقـيُلهْم فيـه العـِبَرْ
وطباعُهـمْ كجبـالهمْ جُبلت وقـدّت مـن حجـرْ

ومن معرة النعمان نسمع صوت أبو المواهيب المعري(٢) يهجو مدينة دمشق وأهلها، ويصفهم بالبخل وأنهم لا يوفون بالوعد، وأنهم إذا وهبوا القليل اتبعوا ذلك بالمنّ الخانق فيقول(٣):

وردتُ بها في الشام مـاءَ مَعاشـرٍ نَداهم على وُسعٍ من المـال ضـيّق
مكارمهم وعـدٌ ولا خيـرَ خَلفَهـا وودّهُم المصنوع مـنهم تَمَلـُّق
تَمَخّضَ لي بالوعـد عامـاً أَكُفُّهُـم وخلّفتَها خَلفي به وهـي تُطلـَقُ
يَمُنُّون إن مَنَّوا، ومنُّـوا بنـزرهِ ولا خير في طوقٍ من التّبـر يخنُـق

وعندما ورد العماد الأصفهاني إلى دمشق، لم يحسن أهلها استقباله، فرفع قصيدة لنور الدين يتذمر فيها من أهل المدينة، وكيف أنه أقام فيها شهوراً، لم يجد

(١) ابن منير، ديوانه، ص ١٦٧.
(٢) أبو المواهيب المعري: هو عبد المحسن بن صدقة بن عبدالله بن حديد من شعراء المعرة، قدم إلى دمشق، ولد سنة ٤٤٨ هـ ومات باليمن قتلاً سنة ٥٠٣ هـ، الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء الشام، ج٢، ص١١٨- ١١٩
(٣) المرجع نفسه، قسم شعراء الشام، ج٢، ص١١٢ – ١١٣.

فيها صديقاً يحسن إليه، أو حاكماً يبرّ به، واصفاً قلــوبهم بالصــخر، متــذمراً مــن وجوههم العابسة وأيديهم المغلولة إلى أعناقهم، ومن ذلك يقول[١]

وببغــــدادَ قيـــلَ إن دِمشَــقاً ما بِها للرّجا سِـواك مُجــــيرُ
مــا يَــري نــاظِرٌ نَظيَــركَ فيهــا فَهيَ رَوضٌ بما تَجودُ نَضيــــرُ
وَمِــن النائبــــاتِ أنّــي مُقـيمٌ بـــدِمشَــقٍ وللمَقُــام شُهـــــورُ
لا خَليــلٌ يقــولُ هـــذا نزيــلٌ لا أميـــرٌ يقـــول هــذا سَـميرُ
لَستُ ألقــى ســوَى وُجــوهٍ وأيــدٍ وَقُلوبٍ كـــأنهّنَّ صخَـــورُ

ومن البلدان الشاميّة الأخرى التي تعرضت للقدح والهجاء: بعلبك، فحين هجا الشاغوري الضياء بن فارس وزير الملك الأمجد صاحب بعلبك صبّ غضبه علــى المدينة نفسها، فرسم صورة شائهة ووسم أهلها بالجهل وسخر من حاكمها الضــياء الذي جلب لها الخراب والدمار، حيث يقول[٢]:

لا سقـــــى الله بعلبـــك مُلثُ الهـــواطِـــلِ[٣]
بَلـــدَةٌ لـــم تُعـــدَّ فـــي المُـــدن بل في المزابـــلِ
إنهـــا شَـــرُّ بلـــدَةٍ شُحِنـــَت بـــالأَراذِلِ
أَهْلُـــها لم يُفـَــرِّقوا بــينَ قـُـــسٍّ وبـــاقِلِ
دُمّـــرَت حيـــنَ دُبّـــرَت بالظّـــلامِ بـــن رَاجِـلِ[٤]

لقد كثف الشاعر المعاني وحاول إبراز معايب بعلبك، وحصرها فــي ثــلاث صفات " مشحونة بالأراذل – أن أهلها لا يفرقون بين قس وباقل – وأن الله أهلكهــا حين تولاها المهجو..... "، ومن هنا شعر فتيان الشاغوري بأن هذه المدينة صارت شر بلدةٍ ولا تصلح الإقامة فيها.

---

(١) الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، بداية قسم شعراء الشام، ص٤١.
(٢) الشاغوري، ديوانه، ص٣٦١.
(٣) الملث: هو المطر الذي يدوم أياماً.
(٤) ظاهر ما قصد الشاعر من قلب اسم المهجو، فالضياء أصبح ظلاماً والفارس صار راجلا.

ومن البلدان الشامية التي تعرضت للهجاء الشاغور[١] والزبداني[٢]، فقد هجا فتيانُ الشاغورَ مركّزاً على صفة اللصوصية التي يتصف بها أهلها، مبيناً أن مأكلهم حرام، واصفاً مهاراتهم وخفت أيديهم في السرقة، وكيف أنهم عدّوا ذلك من مفاخرهم، فيقول[٣]:

وبَينَ نُهَيرَي الشّاغورِ قومٌ يَرَونَ الفَخرَ كونُهمُ لُصوُصا
وما طَبَخَت قُدُورُهُمُ حَلالاً فَلَيتهُمُ بِهَا طَبَخُوا مَصُوصا[٤]
ولو أنّا نُصَافحُ خَيِّريهم لسلّوا مِن خَوَاتمِنا الفُصُوصا

فالشاعر هنا يرى بوضوح أهل شاغور، عندما الصق عليهم صفة اللصوصية، ونرى براعة الشاعر في البيت الأخير عندما تساءل إذا كان هذه حال خيريهم،،، فكيف يكون حال الآخرين منهم.

وقال يهجو أهل الزبداني :

أَرَقنا لديكم مِياهَ الوُجُوهِ واهراقُ ذاكَ من الحُرِّ مُرّ
وبالزَبداني رأَينا الخِلاطَ خِلاطاً وكم دونها بُكتُمُر

وكان فتيان الشاغوري يستطرد من هجاء المدينة عامة وذمّ أهلها إلى هجاء بعض البوتات فيها، كما في الأبيات التالية التي يسخر فيها من بني عصرون[٥] فقال[٦]:

على بَيتِ عُصرونَ العَفاءُ فما لَهمُ قَدِيمٌ ولا عِندَ الفَخارِ حَديثُ
إذا رَكبَ القَومُ البِغالَ أَو ابتَدُوا فما لُهُم في المكرُماتِ حَديثُ

---

(١) الشاغور: محلة مشهورة بالباب الصغير من دمشق، انظر: الحموي، معجم البلدان، ج٣، ص٣١٠.

(٢) الزبداني: كورة مشهورة بين دمشق وبعلبك، ان: المرجع نفسه، ج٣، ص١٣٠.

(٣) الشاغوري، ديوانه، ص٢٥٣.

(٤) المصوص: طعام من لحم يطبخ وينقع في الخلّ.

(٥) بني عصرون: أصلهم من الموصل ثم استقروا بدمشق وتولى بعضهم القضاء فيها وال احدهم تنسب مدرسة العصرونية وهو القاضي عبد الله بن أبي عصرون.

(٦) الشاغوري، ديوانه، ص٧١.

بِغالاً تَرىَ أذنابَها كِلحاهُم فَتَضرِطُ من أفواهِهِم وتَروُثُ

ومالَهُم وُدٌّ، بلى إنَّ كلَّهم يَعُوقُ عَنِ الجدوىَ ولَيسَ يَغُوثُ

وامتد هذا الهجاء ليشمل مدناً أخرى، خارج حدود والشام، فقد هجا الحافظ ابن عساكر[1] مدينة نيسابور، وشكا شدة بردها، وقلة الأصدقاء فيها، فيقول[2]:

لا قدّس الله نيسابور من بلدٍ ما فيه من صاحب يسلي ولا سكنِ

لولا الجحيم الذي في القلب من حرق لفرقة الأهلِ والأحبابِ والوطنِ

لمت من شدّة البردِ الذي ظهرت آثار شدته في ظاهر البدنِ

ففي هذه المدينة يسيطر اليأس والشؤم على وجدان الشاعر، ويعزو هذا الأمر إلى الدهر الذي تمكن من تفريق الأهل والأحباب والوطن، لذلك غدت نيسابور المدينة التي نفر منها الشاعر، فارتبطت بوجدانه لتشكل بعداً سوداوياً، فلا أنيس فيها ولا صديق، وتتحطم على جدرانها آماله بالخير والنعيم والألفة، لتزرع في نفسه الغربة والقلق والقهر والاضطراب، وتتقطع حبائل العلاقات الإنسانية وتتهاوى، لتغرس حبائل الكراهية والغربة مكانها، ولولا حرقة قلبه على فراق الأحبة لمات من البرد الذي ظهر أثاره على جسده. وهجا ابن عنين مدينة بخارى بقوله[3]:

آليتُ لا آتي بُخَارى بَعْدَهَا ولو أنّها في الأرضِ دَارُ خُلُودِ

فَلَقَدْ حلَلْتُ بِها حَنيفاً مُسْلِماً وَرَحَلْتُ عَنها باعتقادِ يهودي

ولعلّ هجاء ابن عنين لهذه المدينة، كان بتأثير من غربته وأزمته النفسية التي ولدّها نفيه من دولة صلاح الدين الأيوبي، بسبب كثرة هجائه لأرباب الدولة فيها، حتى لم يسلم من هذا الهجاء صلاح الدين نفسه[4].

---

(١) هو علي بن الحافظ بن الحسن بن عساكر الحافظ الدمشقيّ، أحد أئمة الحديث المشهورين، من مصنفاته: تاريخ مدينة دمشق، توفي سنة ٥٧١هـ. انظر: الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء الشام، ج١، ص٢٧٤. الحمويّ، معجم الأدباء: ج١٣، ص٨٧.

(٢) الحموي، معجم الأدباء، ج٤، ص١٧٠٣.

(٣) ابن عنين، ديوانه، ص٢١١.

(٤) سلطاننا أعرجٌ وكاتبُهُ ذو عمشٍ والوزيرُ منُحدبُ

وصاحبُ الأمر خلقُهُ شرسٌ وعارضُ الجيش داؤه عجب

وحاكم المسلمين ليس لهُ في غير غرمول أسودٍ أربُ

عيوبُ قومٍ لو أنّها جمعت في فلكٍ ما سرت بهِ شهبُ

وتعرض الشعراء الشاميون – إلى جانب ذم المدن – لبعض أماكن السكنى والمرافق العامة، كالحمامات التي انتشرت في هذه الفترة انتشاراً واسعاً[١]، وباتت من أبرز ما تميزت به الحضارة الإسلامية[٢]، ووصف لمساوئ هذه الحمامات وافتقارها للنظافة، وهذا ما نلمسه من أبيات كمال الدين الأعمى عندما دخل نفسه حماماً ضيقاً، شديد الحرّ، ليس فيه ماء بارد، فقال يذمه ويصف من يدخله، مصوراً شدة حرارته، وإظلام نواحيه، وضيق بابه الذي يشبه طاقة سجن، وفظاظة القائم عليه، وسوء معاملته للناس[٣]:

إنّ حمامنا الذي نحن فيه ... قد أناخَ العذاب فيه وخيّمْ
مظلم الأرض والسّما والنواحي ... كلّ عيب من عيبه يتعلمْ
حَرجٌ بابه كطاقة سجن ... قال لي اخس فيه ولا تتكلّمْ
وله مالك غدا خازن النّا ... شهدَ اللهُ من يُجْز فيه يندمْ
كلّما قلت قد أطلت عذابي ... ر، بلى مالك أرقّ وأرحمْ
قلت لمّا رأيته يتلظّى: ... ربنّا اصرف عنا عذاب جهنمْ

ويرى الأسعرديّ مجموعة من العيوب والمساوئ التي عايناها في أحد الحمامات التي دخلها، وهي عيوب تصور عدم اهتمام القائمين على الحمام بنظافته والعناية به[٤]،

ومن ذلك يقول[٥]:

رأيت لحمامكم ستة ... يظلّ لها كلّ طلق عبوسا

---

(١) ابن جبير، رحلة ابن جبير: ٢٠٢.

(٢) عاشور، سعيد عبد الفتاح، المجتمع الإسلاميّ في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، الدار المتحدة للنشر، بيروت، ١٩٧٤، ص٢٢١.

(٣) الكتبي، فوات الوفيات، ج٣، ص٩١.

(٤) للاستزادة انظر: الرّقب، شفيق، شعر الهجاء في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، العدد٥٥، تموز – كانون الأول، ١٩٩٨، ص٣٤

(٥) ابن العديم، بغية الطلب في تاريخ حلب، ج٩، ص٤٢٤٣.

هواء تجمد منـــــه الرؤوس وماء يذيب الكُلـــــى والنفوســـا
وســقف يدرّ كفيـــض الغمام وأرض تمانع عنهــا الجلوســـا
وطين تغرغر منـــه الحلوق "وعشواء تمنح" روحــاً خسيســا[1]

وواضح من هذا الوصف المسهب الذي أورده الشاعر بهذه الطريقة الهازئة، سوء حال بعض هذه الحمامات التي كانت تفتقد إلى أدنى شروط الصحة العامة.

وقد زار جوبان القوّاس حماماً، مخدوعاً بظاهره ومــا عليــه مــن نقــوش وتصاوير، فما أن دخله حتى أخذت الروائح الكريهة تتصاعد منه، واكتنف الظــلام حجراته، وأخذ يسير فيه متلمساً طريقه كالأعمى فيقول[2]:

جئت أريد الحمــام يومـــــاً فغرّنـــي الـــنّقش والحصـــيرُ
حتـــى إذا جـــزت نِلـــت ريحـــاً كأنّمـــا تنبـــش القبـــورُ
أنقـــلُ خـــوف الوقـــوع رجلـــي فيها كمـــا ينقـــل الضـــريرُ
وكلّمـــا جـــاء لهـــا زبون قلنـــا: ألـــم يأتكـــم نـــذيرُ؟!

ونستطيع أن ندخل في هذا الإطار، ذم الشعراء لمنازلهم وأماكن ســكناهم، إذ من خلال هذا الشعر نتعرف إلى أحوال بعض الشعراء، وما كانوا يعانون من فقــر وبؤس حال. لذلك ارتبط هذا الهجاء بالشكوى والحزن من انعدام السكن والطمأنينة، والتذمر من الفقر والحرمان، لدى عدد من الشعراء الذين كانوا ضحية لمثــل هــذه الأوضاع الاجتماعية القاسية، فقد ذمّ كمال الدين بن الأعمى دار سكناه في قصــيدة مطلعها[3]:

دارٌ سكنت بهــا أقــلّ صفاتهـــا أن تكثر الحسرات مــن حشــراتها

وقد اقترن هذا الهجاء في الغالب بالسخرية والتهكم، فصوّر الشــاعر منزلــه تصويراً ساخراً بيّن سوء أوضاعه الصحية، وخلّو ه من أبسط مســتلزمات الحيــاة

---

(١) ورد ما بين علامتي التنصيص في بغية الطلب هكذا " وعشو يمنح " فلا يستقيم به الــوزن والمعنى.

(٢) الكتبي، فوات الوفيات، ج١، ص٣٠٧.

(٣)المرجع نفسه، ج٣، ص٨٧.

الكريمة، فيفصّل القول في هجاء منزله تفصيلاً، ويقلبه على غير وجه، في قصيدة طويلة، أطال في وصف الحشرات القاطنة فيه، وعبّر عن آلامه ومعاناته من لدغ الحشرات، وأصواتها المزعجة، والروائح الكريهة التي تصدر عنها.

من بعض ما فيها البعوض، عدمته ... كم أعدمَ الأجفان طيب سِنَاتها

وتبيتُ تسعدها براغيثٌ متى ... غنّت لها رقصت على نغماتها

وبها ذباب كالضباب يسدّ عيـ ... ـن الشمسِ، ما طربي سوى غناتها

وبها خفافيش تطير نهارها ... مع ليلها، ليست على عاداتها

وبها من الجرذان ما قد قصرت ... عنه العتاق الجرذ في حملاتها

وبها خنافس كالطنافسِ أفرشت ... في أرضها، وعلت على جنباتها

قد رممت من قبل أن يلقى لآ ... دم أمنّا حوّاء في عرفاتها

شاهدت مكتوباً على أرجائها ... ورأيت مسطوراً على عتباتها

لا تقربوا منها وخافوها ولا ... تلقوا بأيديكم إلى هلكاتها

كم بتّ فيها مفرداً والعين شو ... قاً للصباح تسحّ من عبراتها

وأقول يا رب السموات العلى ... يا رازقاً للوحشِ في فلواتها

أسكنتني بجهنم الدّنيا ففي ... أخراي هب لي الخلدَ في جناتها

وبها عقارب كالأقارب رتعا ... فينا، حمانا الله لدغ حماتها

كيف السبيل إلى النجاة ولا نجا ... ة ولا حياة لمن رأى حيّاتها

السم في نفثاتها، والمكر في ... فلتاتها، والموت في لفتاتها

وبها قراد لا اندمال لجرحها ... لا يفعل المشراط مثل أداتها

أبداً تمصّ دماءنا فكأنّها ... حجامة لبدت على كاساتها

واجمع بمن أهواه شملي عاجلاً ... يا جامع الأرواح بعد شتاتها

ويمضي الشاعر في قصيدته على هذا النحو من تصوير الحشرات والزواحف التي تقيم في داره، ذاكراً ما كان يعج في أرض هذا المنزل من حشرات وحيوانات متعددة، بدت أشبه ما تكون بجيوش متطاحنة لا يهدأ لها بال، ناقلاً صوراً واقعيةً انتقى أغلبها من محيطه، فيرى العقارب التي ترتع في ساحاتها، والبوم التي

تعكف في جنباتها، ويصف قدم الدار التي استوطنتها الجن، وتصدّع جدرانها، وتهدم سقفها، حتى غدا " مفرداً " في هذه الدار التي وصفها بأنها "جهنم الدنيا ".

أن القصيدة بما فيها من معاناة وألم، فإنها تشف عن تضجر الشاعر من حياته، وافتقاده للملاذ الذي يطمئن إليه، والصديق الذي يأنس به، وهذا ما نراه جليّاً، عندما قرن لدغ العقارب بإساءة الأقارب والأصدقاء إليه، داعياً الله أن يحميه من ذلك. وحينما يتحدث عن الأفاعي التي أقامت في الدار، فنراه قد استعار صفات لا تكون إلاّ في البشر، وعندما أنهى الشاعر قصيدته سأل الله – تعالى – أن يجمع شمله بمن يهواه، ويجد السكينة في جواره، ويؤنس وحدته.

ولم يقف الشعراء الشاميون في هجاءهم للمدن عند حدود ذمها وأهلها ومنازلها ومرافقها العامة، بل امتد أيضاً ليشمل بعض مظاهر الفساد الاجتماعي، والتنديد بها، وتصوير معاناة الناس منها، ودعوة أولي الأمر إلى إزالتها والقضاء عليها. وقد تعددت مظاهر النقد الاجتماعي آنذاك، فشملت الحكم والإدارة، والقضاء، والفقهاء، والمتصوفة، وسدنة المساجد، وغيره ذلك.

وقد شاع الشعر الذي انتقد أجهزة الحكم والإدارة، وكان هذا النقد يوجه إلى الحكام مباشرة، بحيث يبين الشعراء فيه مواضع الخلل والفساد، فعلى الرغم من المعاهدات التي أبرمت بين نور الدين وحكام دمشق، فأنّه ظلّ متوجساً منهم، وغير واثق بهم، لما عرفه عنهم من نقض العهد، وممالأة الأعداء، ومع ذلك كان مشفقا من مقاتلتهم، حقناً لدماء المسلمين، " فإن الدم كان عنده عظيماً، لما كان قد جبل عليه من الرأفة والرحمة والعدل.. "[1]. لذلك عمد نور الدين إلى الحيلة فراسل عطاء السلمي[2] أحد أمراء المدينة ليعينه على امتلاكها، وقد سجل ابن منير

---

(١) ابن الأثير، علي بن أبي الكرم محمد،، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل، تحقيق: عبد القادر طليمات، دار الكتب الحديثة ومكتبة المثنى، القاهرة، وبغداد، ١٩٦٣، ص١٩٠.

(٢) أحد أمراء دمشق، وقد تغلب عليها بأمر مجير الدين، وكان ظالما غشوماً توفي سنة ٥٤٩هـ، انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٢٤٩.

الطرابلسي ذلك في مقطوعة استهلها بأبيات سخر فيها من حكام دمشق، وأسف على فساد أحوالها، واضطراب أمورها فيقول[1]:

دَمْشَقَ في "دَمشَــق" رجــالُ سـلمِ ... لِحُورِ نسائِهمْ منهم نِسَـــــاء

جِنانٌ تُعْرَفُ الجَنّــات فيهـــا ... ولا رأىٌ هنــــاك ولا رُواءُ[2]

وعندما تفاقم ظلم السامري وزير الملك الصالح إسماعيل، أرسل الفقيه شمس الدين المقدسيّ إلى الملك الصالح قصيدة اصطنع فيها أسلوب الوعظ والنصح، شاكياً إليه فساد حاشيته وسوء صنيعهم، وسماهم له واحداً واحداً، آخذاً عليه اعتماده على مثل هؤلاء المفسدين، ولاسيما على ثعلب وفضيل المنجمين اللذين أكثر الملك الصالح من استشارتهما فيقول[3]:

يا مالكاً لم أجد من نصيحته ... بدّا، وفيها دمي أخشاه منسفكا

اسمعْ نصيحةَ من أوليته نِعماً ... يخافُ كفرانًها إنْ كفّ أو تركا

واللهِ لا امتدَّ ملكٌ مدَّ مالكهُ ... على رعيّته من ظُلمِه شبَكا

ترى الحسود به مستبشرا فرِحاً ... مستغرباً من بوادي أمرهِ ضحكا

وزيرهُ ابنُ غزال والرفيعُ له ... قاضي القضاة ووالي حربه ابنُ بكا

وثعلبٌ وفُضيلٌ مَنْ هما، وهما ... أهل المشورة فيما ضاق أو ضنكا

جماعة بهم الآفات قد نُشرت ... والشرع قد مات والإسلام قد هلكا

ما راقبوا الله في سرّ وفي علن ... وإنمّا يرقبون النّجمَ والفلكا

إن كان خيراً ورزقاً واسعاً فلهم ... أو كان شرّاً وأمراً سيئاً فلكا

---

(١) ابن منير، ديوانه، ص٢٦٠.

(٢) الرواء: المنظر الحسن، ودمشق في الشيء: بمعنى أسرع.

(٣) الكتبي، فوات الوفيات، ج٣، ص٣٥٨.

وتذمرّ فتيان الشاغوري عندما استوزر الملك الأمجد بهرام شاه مهذب الدين السامريّ[١] إذ أكثر من استخدام أقاربه من اليهود السمرة، ف " كثر منهم العسف وأكل الأموال والفساد "[٢] فيقول[٣]:

الملكُ الأمجدُ الذي شهدتْ لهُ ملوكُ الزّمانِ بالفضْلِ
وأصبح في السامريّ معتقداً ما اعتقدَ السامريّ في العجل
والسامريون كالبرامك مِنْ قَبْلُ، فأيْن الرَّشيدُ للقَتْلِ

وتعرض بعض الشعراء في نقدهم للحكام إلى أخلاقهم وسلوكهم، فقد هجا ابن دنينير ابن يعلى وزير الملك الظاهر بحلب في عدة مناسبات، ومن ذلك قوله يصفه باللؤم والجهل وضعف العزيمة والحمق وسوء الأخلاق[٤]:

ما إن سمعتُ ولا رأيتُ ولن أرى لؤماً يماثل لؤم عبد الباقي
هو جاهلٌ واهي العزيمةِ أحمقٌ صَعبُ العريكةِ ضيّقُ الأخلاق
فلو أن رجليه بخفة رأسهِ لغدا يفوت نواظر الأحداق

وقد صاغ بعض الشعراء نقدهم للحكام بأسلوب هزلي ساخر تتبدى فيه روح السخرية بقوة، ولعل أشهر أولئك الشاعر ابن عنين الذي ثابر على هجاء الحكام في عصره، ومن يقرأ هذا الهجاء يشعر أنه يعبّر عن تجربة إنسانية عميقة فيها قدر طاغ من حدة الإحساس وقوة الشعور. فعندما نفي ابن عنين من دمشق، استنكر ذلك، وهتف في وجه مقدمي الدولة قائلاً[٥]:

لو كنتُ أسودَ مثل الفيلِ هامتُه عبلَ الذَراعين في غُرمولِه كِبَرُ

---

(١) من الأطباء المشهورين، استوزره الملك الأمجد وكثر من العسف والفساد، انظر: ابن أبي أصيبعه: أبو العباس أحمد بن قاسم، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق: نزار رضا، مكتبة الحياة، بيروت، (د.ت)، ص٧٢١ – ٧٢٢.

(٢) ابن أبي أصبيعه، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص٧٢٢.

(٣) الشاغوري، ديوانه، ص٣٥٩.

(٤) ابن دنينير، ديوانه، ص ٥١٦.

(٥) ابن عنين، ديوانه، ص٢٣٦.

كانتْ حوائجُ مثلي عندكم قُضــيتْ   لكنّي أبيضٌ في أيــدهِ قِصَــرُ

وبعد أن أذن له الملك بالعودة إلى دمشق، عاد إليها قوي النفس، وهو ينشد[1]:

هجـــوت الأكـــابر فـــي جلّـــق   ورعت الوضيع بهجـو الرفيـع
وأخرجـــــت منهــــا ولكننـــــــي   رجعت على رغم أنفِ الجميـعِ

وقد كثر الحديث عن هجاء القضاة في بلاد الشام زمن الحــروب الصــليبية، ونقدهم، مع أن عدداً منهم كان مشهوداً له بالعدل والنزاهة، فقد انتقــد ابــن دنينيــر القاضي حجة الدين الشهرزوري، وشهّر به، ونعته بالجهل، والظلم والفسق والفجور ومن ذلك قوله[2]:

قاض غدا فـــي الويــلِ والثبـــــــــــــورِ
من قبح ما يأتي مـــن الأمـــــــــــــورِ
فـــي بخلـــه ولؤمـــه المشهـــــــــــورِ
والظـــــلم والجـــور وقـــولِ الـــــــزورِ
وجـــــــهله المـــــــــّركب الموفـــــــورِ
معتـــــرف بالفســــــق والفجـــــــــــورِ

وحدث سنة ٦٦٣هــ، أن اجتمع على ولاية القضاء بدمشق، وفي زمن واحد، أربعة قضاة، وجعل كلّ واحد منهم قاضي القضاة لأحد المــذاهب الأربعـــة، وقــد استهجن أبو شامة المقدسيّ ذلك قائلاً : " وهذا شيء ما أظنه جرى في زمان سابق "[3]، وكان لقب ثلاثة من القضاة " شمس الدين "، فاتخذ الشعراء من ذلــك مناســبة للسخرية، كا في قول أحد الظرفاء[4]:

أهـــــل دمشـــق اســترابوا   مِـــــنْ كَثْـــــرة الحكـــامِ

---

(١)ابن عنين، ديوانه، ص٩٤.

(٢) ابن دنينير، ديوانه، ص٥٧٧.

(٣) أبو شامة، الذيل على الروضتين في أخبار الدولتين، ص٢٣٦.

(٤) المرجع نفسه، ٢٣٦.

وهـــم جميـــع شمـــــــوس   وحـــــــالهم فـــي ظـــــــلامِ

وقول آخر:

أظـَــــلمَ الشّــــــــام وقـــــدْ   ولـــــيَ الحكـــمَ شمــــوسُ
ليس فـــيهم مـــن يبـــتّ الحكـــــ   ــــــمَ علمـــــاً أو يســـوسُ

وقد اتّسعت دائرة النقد الاجتماعي في الشعر الشاميّ زمن الحـــروب الصـــليبية، فشملت المتصوفة الذين تكاثروا في المدن الشامية وأئمة المساجد والفقهـــاء، فقـــد ســـخر شهاب الدين بن غانم، وهو متصوف، من الفقهاء الذين يعتكفون في المساجد في رمضان، فيشبههم بالشياطين فيقول(١):

ما اعتكــاف الفقيــه أخــذاً بــأجر   بل لحكم قضـــى بـــه رمضـــانُ
هو شهر تغلّ فيـــه الشياطـــــــ   ـــين، ولا شـــكّ أنـــه شـــيطانُ

بيد أن ابن عنين كان أكثر الشعراء جرأة فـــي الحـــديث عـــن بعـــض العمـــال والمستخدمين، وخاصة في دولة الملك المعظم عيسى، فعندما أمر الملك بأن تسلسل أبواب الجامع الأمويّ بدمشق، التمس ابن عنين تعليلاً لذلك، ليطعن في أمانة سدنة المسجد الذين نهبوا أمواله فيقول(٢):

لمّـــــا رأى الجـــــامع أموالـــــه   مأكولـــة مـــا بـــين نوّابـــهِ
جُـــنّ فمِـــن خـــوف عليـــه غـــدا   مسلســـلا مـــن كـــلّ أبوابـــهِ

وبعد،،،،

وهكذا يتبين لنا من خلال عرض أنماط الهجاء والمدن الشامية عصـــر الحـــروب الصليبية أن الشعراء كانت علاقتهم بالمدينة تتراوح بين صور حزينـــة مليئـــة بعناصـــر التشويه، وبين الفكاهة والسخرية في صفات المدن وأهلها، ولمّا كان شعر الهجاء والنقـــد الاجتماعي يعبّر عن موقف الشاعر الرافض لبعض الممارسات في عصره، فقد تولّد عن ذلك لغة تقوم على التقابل بشكل ترصد المفارقات وأوجه التضاد في السلوك الاجتمـــاعي وتصوير لجوانب من الحياة اليومية في ديار الشّام زمن الحروب الصليبية.......

---

(١) الكتبي، فوات الوفيات، ج١، ص١٢٧.
(٢) ابن عنين، ديوانه، ص ١٤٣.

الفصل الثالث

رثاء المدن الإسلامية

١.٣ رثاء المدن الإسلامية

الرثاء موضوع دقيق، وهو ليس بظاهرة جديدة في الشعر، إذ شهد القرن السادس الهجري أنواعا من المراثي، لعل أبرزها شيوعاً، التعزية أو التأبين – التعزية بالرجال المشهورين والتأبين لهم على جميع المستويات حكاماً كانوا أو وزراء، فكان الشعراء آنذاك يمارسون قاعدة معينة تقول إن من استحق المدح فقد استحق الرثاء، وثمة نمط من الرثاء ظهر بسبب الحروب الصليبية، وهو رثاء المدن التي استولى عليها الفرنجة وعاثوا فيها فساداً، غير أن كمية ما نقل إلينا من هذا الشعر كانت قليلة قياساً بفداحة الأحداث وقوة المدّ الصليبي الذي أدى إلى بسط نفوذ الغزاة على مساحات واسعة من ديار الشام، ولعل السبب يعود إلى أن الشعراء يرون أن المدن على الرغم من سقوطها، فإنها لم تمت حتى تستدعي الرثاء – ولو حدث – يعني فقدان الأمل الكلي باسترجاعها.

لقد بنى الشعراء في العصور السابقة للمدينة صورة تكاد تكون موحدة، إذ إن بكاء الشاعر على وطنه وديارة، ليست بظاهرة مستحدثة، فشعر ما قبل الإسلام، يشير إلى بكاء الشاعر على وطنه، (الأطلال والديار المقفرة الدارسة)، فقد " كانوا يعبرون عن جزعهم عند الديار والقبور ويدعون لها بالسقيا ويقفون بها، ويزورونها ويحيونها وكانوا يردون بلى الأطلال وآثارها إلى الدهر والزمان...." [(١)]، وكذلك فقد رثى الشعراء قبل الإسلام بعض الحواضر والمدن، بعد إن فجعهم الدهر بخرابها، لكن هذه القصائد لم ترق من الناحية الفنية إلى درجة توازي القصائد المدحية والهجائية، كما من الملاحظ أن الشعراء لم يفردوا قصائد خاصة برثاء المدن، إنما جاءت فكرة أو رؤية من مجموع الأفكار والرؤى في القصيدة، أيّ أنها لم تستقل بصورة خاصة، فقد وردت في قصائد ذات أغراض متعددة[(٢)].

---

(١) جياووك، مصطفى عبد اللطيف، الحياة والموت في الشعر الجاهلي، منشورات وزارة الأعلام، العراق، ١٩٧٧م، ص١٤٥.

(٢) للاستزادة انظر: البكور، حسن فالح، المدينة في الشعر العباسي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، رسالة دكتوراة غير منشورة، جامعة اليرموك، الأردن، ١٩٩٩م، ص٢٣٣.

أما المدينة في العصر العباسي فقد " صارت تمثل كياناً له معنى ووجود في نفوس أهلها، وأن أهلها قد صاروا تربطهم بها روابط كثيرة، مادية ومعنوية وقد تولد في نفوسهم – نتيجة لذلك – شعور أنساني نبيل إزاء المدينة، عبروا عنه في صدق وحرارة، عندما رأوا الخراب والدمار يحل بها كأنهم فقدوا بها عزيزاً عليهم...." (١).

ولم يكن الشعراء في عصر الحروب الصليبية بمنأى عن هذا الإحساس الذي أحسّ به شعراء العصر العباسي، وهم يرثون بعض مدنهم، ولا سيما أن علاقة الإنسان بالمدينة توطدت آنذاك، فقد صور لنا العديد من الشعراء الشاميين المدن الإسلامية في ديار الشام، بعد سقوطها والاستيلاء عليها من قبل الصليبيين، فعندما هاجم الصليبيون المشرق الإسلامي في أواخر القرن الخامس الهجري، كانت بلاد الشام تعاني من الانقسام وتعصف الخلافات بين أمرائها، ممّا جعلهم عاجزين عن المقاومة، وكان المسلمون فيها منقسمين إلى شيع وطوائف، فلم يكن هناك سلطة توحدهم وتقودهم لقتال الغزاة، وظهرت في الشام وغيرها إمارات مستقلة على رأس كل منها أمير، ممّا سهل الأمر على الصليبيين، فتمكنت الحملات الصليبية من تأسيس إمارات لها في المدن الشامية الإسلامية(٢)، فاستيقظ الشعر في دور مبكر للتحريض على رد العدوان، وتصوير ما أصاب المدن من تدمير وتخريب، وكانت الروح الدينية هي العامل القوي في توجيه ذلك الشعر إلى تلك الناحية، إذ تجلّى منذ البداية أن القائمين بالحملة الصليبية الأولى كانوا يرفعون شعار دين في مواجهة دين آخر سواء أكان ذلك مترجماً لمشاعر صحيحة أو شعار زيف ودعوى....." (٣).

١.١.٣ رثاء بيت المقدس وديار الشام عامة سنة ٤٩٢هـ :

ترتب على الأحداث التي تعاقبت على المدن الإسلامية المحتلة، أن حضرت في الشعر الشامي زمن الحروب الصليبية حضوراً واضحاً، إذ صوّر الشعر الأحداث التي مرت بها، والأجواء التي سادت فيها، ابتداءً من احتلالها وانتهاءً بتحريرها، ومن

---

(١) إسماعيل، عز الدين، في الأدب العباسي الرؤية والفن، دار النهضة العربية للطباعة، بيروت، ١٩٧٥، ص٣٦٦.

(٢) انظر: التمهيد من هذه الرسالة، ص١.

(٣) الرّقب، الشعر العربي في بلاد الشام، ص ٥٤.

أوائل الأشعار التي قيلت في رثاء بلاد الشام عامة وبيت المقدس خاصة، القصيدة المنسوبة إلى أبي المظفر الأبيوردي[١] أو (القاضي الهروي) [٢]، إذ شكّل سقوط بيت المقدس نقلة نوعية في الصراع بين الصليبين والمسلمين، وعزز أطماع الصليبيين للاستيلاء على المدن والقرى المجاورة لها، لاسيما أن المذابح التي اقترفت في بيت المقدس استنطقت ألسنتهم، فما أن وطئت أقدام الغزاة الأرض الإسلامية، حتى شرعوا يقتلون المسلمين، ويأسرونهم، ويسبون نساءهم وأطفالهم ويدمرون ما تصل إليه أيديهم من مظاهر الحضارة والعمران، وقد رصد لنا الشعر قصائد تعبر عن صورة القدس بعد الاحتلال، فقد ورد في كتاب النجوم الزاهرة النص التالي:

" ولما تمت هذه الحادثة يعني استيلاء الفرنجة على القدس عام ٤٩٢ هجري، خرج المستنفرون من دمشق مع قاضيها زين الدين أبي سعد الهروي، فوصلوا بغداد وحضروا في الديوان وقطّعوا شعورهم !!! وبكوا !!! وقام القاضي في الديوان وقال كلاماً أبكى الحاضرين، وندب من الديوان من يمضي، لى المعسكر السلطاني (جيش الخلافة) ويعرفهم بهذه المصيبة، فوقع التقاعد لأمر يريده الله فقال القاضي الهروي، وقيل لأبي المظفر الأبيوردي والقصيدة مطلعها[٣]:

مَزَجْنَا دِمَاءً بالدُّمُـوعِ السَّوَاجِمِ فَلَمْ يَبْـقَ مِنَّا عـُـرْضَةٌ لِلمراحِمِ[٤]

وَشَـرٌّ سِـلاحِ المَـرْءِ دَمْـعٌ يُفيضُهُ إذا الحَرْبُ شُبّتْ نَـارُهَا بالصَّوَارِمِ[٥]

---

(١) الأغلب أنها للأبيوردي وأن القاضي الهروي قد تمثل بها، والأبيوردي هم محمد بن أحمد القرشي المتوفى بأصبهان عام ٥٥٧ هجري، الأبيوردي، ديوانه، تحقيق عمر الأسعد، طبعه مجمع اللغة العربية، دمشق، ج٢، ص١٥٦.

(٢) هو محمد بن نصر بن منصور، فقيه مشهور ولي القضاء في بلاد العجم وفي دمشق وبغداد، توفي عام ٥١٩، انظر: السبكي، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي، (١٩٧٠)، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق محمود محمد الطناحي، عبد الفتاح محمد الحلو، ط١، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ١٩٧٠، ج٧، ص٢٢

(٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٥، ص١٥١.

(٤) العين السجوم: التي تصب وتسيل الدمع، والمراحم: جمع المرحمة وهي الرحمة.

(٥) الصوارم: جمع الصارم وهو السيف القاطع.

فقد استهل الشاعر قصيدته بأبيات قوية مؤثرة تضع القارئ في الجو العام للمأساة الدمية التي يحياها المسلمون في ديار الشام وتستثير وجدانه لمرأى الدموع الممتلئة بالدم، حيث أن البكاء سلاح غير مجدٍ في خضم هذه الأحداث العنيفة.

ويخلص الشاعر من هذا التفجع والبكاء إلى تصوير ضروب الفواجع التي حلت بالمدن الشامية، فيقول :

فَإِيـــهِّاً بَنِي الإِســـلامِ إِنَّ وَرَاءَكُـــمْ وَقَائِـــعَ يُلحِقْـــنَ الذُّرَى بالمَنَـــــاسِمِ(١)

أَتَهْوِيمَةً في ظِـــــلِّ أمنٍ وَغِبطَـــةٍ وَعَيْشٍ كَنُوّارِ الخَميــــلَةِ نـــــَاعِمِ؟(٢)

وكَيَـــفَ تَنَـــامُ العَيْنُ مِلءَ جُفُونِهَا عَلـــى هَفَـــوَاتٍ أَيقَظَـــتْ كُـــلَّ نَائِمِ(٣)

وَإِخوانُكُمْ بالشَّامِ يُضحـــى مقيلُهُمْ ظُهُورَ المُذاكَـــي أو بُطُـــونَ القشَاعِمِ(٤)

تَسومُهُـــمُ الرُّومُ الهَوَانَ وانتُـــمُ تجُرُّونَ ذَيْلَ الخَفْضِ، فِعْلَ المُسَـــالِمِ(٥)

فالأبيات تصوير عام لما دهم المدن الشامية المحتلة، وهي تدل على شعور حاد بالأخطار، وتنبه على النتائج المترتبة عليها، لذا فقد اتخذت طابع التنبيه والاستنهاض، فالشاعر يستصرخ المتقاعسين عن القتال مع أخوانهم المسلمين في بلاد الشام، فيوجه نداء حاراً لهم، أن يستيقظوا من سباتهم العميق، ويتعجب الشاعر كيف يمكن أن ينام هؤلاء ملء عيونهم ويعيشوا عيشاً آمناً، وغيرَ بعيد عنهم تجري فظائع الأمور التي تقع على رؤوس إخوانهم من أهل الشام، فلا يجدون وقتاً قصيراً ينامون فيه في بيوتهم، فجلّ أوقاتهم على صهوات الخيول يحاربون أو تكتب لهم

---

(١) إيّهاً: بمعنى زيدوا، الذرا: الأعالي، والمناسم: جمع المنسم للإبل وهو كالظفر للإنســـان أو هو خف البعير.

(٢) التهويمة: جولة الطائر أو النحلة أو ما شابه ذلك في الهواء، والخميلة: الشـــجر الكثيـــف الملتف.

(٣) الهفوات: هي السقطة أو الزلة.

(٤) المذاكي: جمع مذكي وهو الحصان الذي تمت سنة وكمُلت قوته، والقشاعم: جمع قشعم وهو النسر.

(٥) تسومهم: تغير عليهم وتلحق بهم الهوان.

الشهادة فتتخطفهم نسور الجو، فلا يوجد من يدفن جثثهم، وربما يقعون أسرى في أيدي أعدائهم الفرنجة.

ويصف الشاعر أحوال المسلمين في المدن المحتلة، مستثيراً حمية المسلمين لأعراضهم التي انتهكت آسياً للدماء المستباحة، مصوّراً الهلع الذي انتاب الناس كباراً وصغاراً، وتصل الأبيات إلى أعلى درجات الاستثارة عندما صوّر الرسول- صلى الله عليه وسلم- وقد همّه ما حلّ بالمسلمين فأخذ ينادي من قبره الطاهر بأعلى صوت ويحث المسلمين على الجهاد :

وكَمْ مِنْ دِمَاءٍ قَدْ أُبِيحتْ وَمِنْ دُمَىً تُواري حَيَاءً حُسَنْها بالمَعَاصِمِ
بِحيثُ السُّيوُفُ البيضُ مُحْمَرَّة الظُّبا وسُمْرُ العَوَالي دَامِيَاتُ اللَّهاذمِ[1]
وَبَيْنَ اختِلاسِ الطَّعنِ والضَّرْبِ وَقفَةٌ تَظَلُّ لها الوِلدانُ شِيبَ القَوَادمِ
وتِلكَ حُرُوبٌ مِن يَغِبْ عَنْ غِمَارِهَا ليسلمَ، يَقرَعْ بَعْدَها سِنَّ نَادِمِ
سَلَلْنَ بِايدي المشركينَ قَوَاضباً سَتُغمدُ منهُم في الطُّلا والجَمَاجِمِ
يَكَادُ لَهُنَّ المُستَجنُّ بطَيبَةٍ يُنَادي، بِأعَلى الصَوْتِ، يَا آلَ هاشِمِ[2]

ويهيب الشاعر بالمسلمين للنهوض ودفع العدوان، ويوجه النداءات إليهم لعلها توقظهم من هموم الألف والعادة، وتحرك حميّتهم للدفاع عن الإسلام، وذلك يقول:

أرَى أُمَّتي لا يُشرِعُونَ إلى العِدا رِمَاحَهُمُ والدَّينُ وَاهَي الدَّعَائِمِ
وَيَجْتَنِبُونَ النَّارَ خَوْفاً مِنَ الرَّدَى وَلا يَحْسَبُونَ العَارَ ضَرْبَةَ لازِمِ
أَتَرضَى صَنَادِيدُ الأعَاريبِ بالأذَى ويُغَضْي عَلى ذُلِّ كُمَاةُ الأعاجِمِ[3]
فَلِيَتَهُمْ، إذْ لَمْ يَذُودُوا حَمِيّةً عن الدّينِ، ضَنَّوا غَيرَةً بالمَحَارِمِ
وإنْ زهِدُوا في الأجْرِ إذ حَمِسَ الوَغَى فَهَلاّ أتَوهُ رَغْبَةً في المغانِمِ
لَئِنْ أذعَنَتْ تِلكَ الخَيَاشِمُ للبُرَى فَلا عَطَسُوا إلاّ بِأجْدَعَ رَاغِمِ[1]

---

(١) الظبا: حد السيف، سمر العوالي: الرماح، اللهاذم: جمع لهذم وهو الحاد القاطع من الأسنة والسيوف.

(٢) طيبة: المدينة المنورة.

(٣) الصناديد: جمع صنديد وهو السيد الشجاع، والأعاريب: العرب.

ويستوفي الشاعر المزيد من الصور، فها هم قومه يتخاذلون عن الجهاد فيتألم لذلك آلماً شديداً، كما يتعجب من شجعان المسلمين من عرب وعجم كيف يقبلون بهذا كله. وفي نهاية القصيدة يبلغ الألم مبلغاً أشد فعلاً وتأثيراً، فيكشف لهم عن مستقبل أيامهم وما يلاقون فيه من إذلال في أيام أبنائهم الوارثين للخنوع إن قبلوا باحتلال الأعداء لبلادهم، ثم يهددهم بعار تسليم النساء للأعداء إن هم ظلوا على ما هم عليه من الخنوع والجبن والقعود عن الجهاد، ومن ثم ذيّل الشاعر أبياته ببيت ضمنه دعاءً شرطياً على هؤلاء المتخاذلين، وهو دعاء لا يُحمل على معناه الظاهر، وإنما هو في حقيقته إنذار قائم على التنبؤ بالمصير الذي ينتظرهم والأخطار التي ستحدق بهم.

وبعد ذلك تتجه القصيدة صوب النهاية، فيذيلها الشاعر بثلاثة أبيات جعلها خاتمة لها، وذلك في قوله:

دَعَــونَاكُمُ والحَربُ تــــرنُو مُلحَّــةً إليَنَـــا بِألحَـــاظِ النُّسُــورِ القشَـــاعِمِ

تُــرَاقِبُ فِيــنَا غَــــــارَةً عَرَبَـــــيةً تُطَــيــلُ عَلَيَها الــرُّومُ عَضَّ الأباهِمِ

فَـــإِنْ انتُمُ لـــَمْ تَغْضَبــُــوا بَعْــدَ هَذِهِ رَمَيْنَا إلـــى أعْــدَائِنَا بِـــالحَـــرَائِـــمِ

أنهى الشاعر قصيدته على نحو موجع، فالنساء المسلمات سيصبحن سبايا في أيدي الأعداء إن تخاذل المسلمون عن الدفاع عنهن، ولعل الشاعر يصطنع في البيتين الألفاظ الموحية بالقوة ليوهمنا بالقوة والعزم في النفوس المستكينة، إلا أن وطأة الأحداث حدّت من هذه الروح القوية. والقصيدة في جملتها انفعالات وجدانية متأججة، صادرة عن نفس متحرقة متحسرة، تدرك حقيقة الأخطار، وتدعو إلى دفعها قبل تفاقمها، وقد صدرت عن لحظة شعورية واحدة أخضعتها لإحساس مهيمن واحد منذ مطلعها حتى نهايتها ويعزز ذلك من خلال المقابلة التصويرية التي أدت دوراً مؤثراً في حركة المعنى، حيث ينتقل القارئ على نحو سريع من صورة تمثل أحوال المتقاعسين إلى صورة أخرى مغايرة تصف أحوال المسلمين في المدن المحتلة، وقد نوّع الشاعر في الأبيات السابقة من العناصر التحريضية تنويعاً يناسب

---

(١) البرى: جمع البُرة وهي حلقة تجعل في أنف البعير أو الأسير، والأجدع: الذي قطع أنفـــه، وراغم: أي الذليل.

أحوال المخاطبين، إذ اندفع على شكل نوبات انفعالية يتداخل بعضها في بعض مما أخرجها عن منطق الترتيب والتنسيق(١).

وثمة أبيات أخرى تنسب إلى شاعر لم تذكر المصادر اسمه، استشعر فيها على نحو عميق المآسي التي حلّت بمدن بلاد الشام، والعداء الذي يملا قلوب الفرنجة على الإسلام وأهله، وسعيهم الدؤوب لتغيير معالم الحضارة الإسلامية في المدن التي يستولون عليها، فيقول(٢):

أحلَّ الكفرُ بالإسلام ضيماً ... يطول عليه للدّين النحيبُ
فحقٌ ضائعٌ وحمىً مباحٌ ... وسيفٌ قاطعٌ ودمٌ صبيبُ
وكم من مسلمٍ أمسى سليباً ... ومسلمةٍ لها حرم سليبُ
وكم من مسجدٍ جعلوه ديراً ... على محرابه نُصبَ الصليبُ
دم الخنزير فيه لهم خَلوقٌ ... وتحريق المصاحف فيه طيبُ
أمور لو تأمَّلَهنَّ طفلٌ ... لطفل في عوارضه المشيبُ
أتُسبى المسلماتُ بكل ثغرٍ ... وعيشُ المسلمين، إذاً يطيبُ؟
أما لله والإسلام حق ... يدافع عنه شبان وشيبُ؟
فقلْ لذوي البصائر، حيث كانوا: ... أجيبوا الله، ويحكم، أجيبوا

فالقصيدة من الأدب الحزين الباكي التي ترسم بوضوح ضروب الفواجع والمآسي التي تعرضت لها مدن الشام عامة وبيت المقدس خاصة عشية الغزو الصليبيّ، وقد استشعر قائلها المخاطر التي يمثلها الفرنجة على ديار الإسلام، لذلك كثرت في القصيدة الألفاظ ذات الدلالات الدينية، التي تعبر عن حقيقة الصراع بين المسلمين والفرنجة، وقد أكثر الشاعر من اللمحات التصويرية ذات الدلالات المتضادة التي تعمل على تجسيد المفارقة بين الماضي والحاضر من خلال التشكيلات اللغوية التنافرية التي تتكئ على المتقابلات الحسية والمعنوية، مثل: "

---

(١) للاستزادة انظر: الرّقب، صورة المدينة المحتلة في الشعر الشامي زمن الحروب الصليبية، ص٤٥

(٢) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٥، ص١٥١.

الإسلام والكفر– المسجد والدير– والمحراب والصليب– ودم الخنزير وخلوق– تحريق المصاحف وطيب " ويعضد هذه الصور الصيغ الإنشائية وبنية التكرار بأبعادها التأكيدية والإيقاعية.

وهنا نرى أن الشاعر يفصّل في تصوير أجزاء المدينة، بمفردات تصور التشويه الذي أصابها بعد استيلاء الفرنجة عليها، فقد تحولت المساجد فيها إلى أديرة للنصارى، وارتفعت الصلبان فيها على محاريب تلك المساجد، كما انتشرت رائحة الخنازير فيها، فأصبحت رائحة يتلذذ بتشممها النصارى، مع ما يحرقونه من مصاحف في المساجد المستباحة، إلى غير ذلك من الأمور التي لو تأملها صبي لشاب شعر رأسه لفظاعتها وشدة وقعها.

هكذا ركز الشعراء في بداية الغزو الصليبي لبلاد الشام على تبصير المسلمين بواقعهم، فعمدوا إلى إثارة شتى الانفعالات والاستثارات الوجدانية في نفوسهم عن طريق طرح القضايا التي تمس العقيدة المسلم وكرامته. ومن الجدير بالذكر بأن النموذجين السابقين صورة حزينة للكارثة وتنبيه وتحذير للمسلمين ودعوة لهم للوقوف في وجه العدوان الطاغي.

٢.١.٣ رثاء المعرة:

ومن المدن التي رثاها الشعراء مدينة المعرة، فقد وقف العميد أبو البشر بن الحواريّ على داره في المعرة بعد هجوم الفرنجة عليها، فقال[١]:

أهذه بين إنكاري وعرفاني ... مساربُ الوحش أم داري وأوطاني
جَهِلتُها ولقد أبدت ملاعُبها ... عهدَ الصبِّا بين أخواني وخلاّني
فَعُجتْ أسألها والدَّمعُ منسكبٌ ... والقلبُ في لوعةٍ من وَجْدِهِ عانِ
يا دارُ مالي أرى الأيام قد حكمتْ ... فينا وفيك بحكم الجائر الجاني
فلو أجابت لقالت هكذا فعلت ... قِدْماً بجيرة نُعمانٍ ونُعمانِ
وفي مدائن نوشروانَ مُعَتَبْرٌ ... للسائلين وفي سيفٍ وغمْدانِ

---

(١)الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء الشام، ج٢، ص٨٧.

فاذهبْ لشأنك فالدنيا لها دول تمضي وتأتي وكلٌّ بينها فانِ

لقد أوضحت الأبيات أنها صادرة عن لحظة تأملية تراءت فيها المعرة (مجسّدة في داره) في صورة (طلل)، غير أنّ الشاعر لم يكن مأخوذاً برسم التفاصيل الحسيّة لهذا المشهد، وإنما كان معنيّاً بالتعبير عن انفعالاته وقد وجد نفسه أمام فناء شمل الإنسان والعمران معاً، ويقوم المسلك التعبيري في البيتين الأول والثاني على حوار داخليّ تشي به همزة الاستفهام والتي تحولت من معناها الحقيقي لتدل على الإنكار والتكذيب الرافض لما يعانيه الشاعر،لكن هذا التكذيب سرعان ما يتلاشى في الأبيات التالية، لذلك فقد صار الحوار بين الشاعر والديار التي أصابها الخراب، وهنا يتسع الإحساس بالتحوّل السلبي في حركة الزمن (الجائر الجاني)، فيذكر الشاعر بأسلوب تقريري بعض مظاهر العظمة الزائلة، لا على سبيل التأسيّ وحسب، وإنّما ليشير إلى أنَّ ما حلّ بالمعرة هو سلسلة الهدم التي يمارسها الزمن على الحضارة الإنسانية.

وقد أقام الشاعر مقابلة واضحة بينه وبين الديار المهدّمة، فربطها، بماضي عمره (عهد الصبا) ليدلّ على أنَّ الفناء شمل جزءاً من حياته، وقرن تأثير الأيام في الديار بتأثيرها في نفسه والآخرين (حكمت فينا وفيك)، ولكنَّ هذه المقابلة انتهت إلى انفصال تنسحب فيه الديار إلى الفناء والتلاشي، ويمضي الشاعر إلى العمل والحياة (فاذهب لشأنك) لتبدأ دورة أخرى من دورات الوجود الإنساني.

ونجد نظيراً للموقف السابق لدى شاعر آخر من شعراء المعرة هو أبو المجد المعريّ الذي وقف على داره بعدد هجوم الفرنجة، فأحزنه مرآها وقد تبدلت معالمها، وخلت من مظاهر الحياة، فيقول[1]:

وقفتُ بالدّار وقد غُيّرت معالم منها وآثارُ
فقلتُ والقلبُ به لوعةٌ تحرقه والدمعُ مدرارُ
أين زمانٌ فيكِ قضّيتُه وأين سكانك يا دارُ

---

(١) الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء الشام، ج٢، ص١٠.

٣.١.٣ رثـــاء عســـقلان:

ومن المدن التي رثاها الشعراء مدينة عسقلان، فعندما زارها عبدالله بن رواحة الحموي، ندبها في مقطوعة عبّر فيها عن أحزانه عليها، ومما عمق هذه الأحزان مرآي قبول الشهداء الذين ماتوا على أرضها، ومنظر المسلمين وهم يعانون المسكنة الذميّة فيها، وذلك إذ يقول(١):

مررتُ بعسقـــــلانَ وقـــد رمتهـــا	يدُ الحـــدثـــــان بالسّـــهم المصـــيبِ
فأبكتني علـــى الإســــــلام دينـــاً	خلاف بُكا الحبيب علـــى الحبيـــــبِ
وكم في التـــراب فيها مـــن شـــهيدٍ	وكم في الأسر فيـــها مـــن غريـــبِ

٤.١.٣ رثـــــاء حوران

بعد مرحلة الهزائم يأخذ نجم عماد الدين زنكي بالبزوغ، ويُصبح محوراً لما يلي من انتصارات وما يتصل بها من أشعار. وفـــي عهـــد نـــور الـــدين تتـــوالى الانتصارات، التي استطاع من خلالها استعادة كثيراً من المنـــاطق الواقعـــة تحـــت سيطرة الفرنجة، فواكب الشعر تلك المعارك، إذ كانت الحركـــة الجهاديـــة تغـــري الشعراء بالقول. ثم يتابع صلاح الدين مسيرة الجهاد، غير أنّ المنحنـــى الجهـــادي الصاعد قد أخذ بالهبوط بعد وفاة صلاح الدين، حيث استغل الفرنجة الصراع الـــذي استعر بين ورثته، فحاولوا إعادة فرض سيطرتهم علـــى الأمـــاكن التـــي اســـتردها المسلمون، وهنا نجد شعر الرثاء يستيقظ مرة أخرى، ففي سنة ٦١٤هـ تعرضـــت حوران لاجتياح صليبيّ شامل، امتد من بلاد حوران إلى أقصى جنوب بلاد الشـــام،

---

(١) ابن المستوفي، شرف الدين أبو البركات المبارك بن أحمد الأربلي، تاريخ آربل، تحقيـــق: سامي الصقار، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨٠، ج١، ص٤١٣.

كما أنه اجتياح لم تتحدث عنه المصادر[١] ولابن عقيل الزرعي قصيدة فريدة من نوعها يرثي بلاد حوران وهي تمضي على النحو التالي[٢]:

جارَ الزمانُ على سكان حَوْرانا ... لا كانَ دهرٌ قضى بالجَوْرِ لا كانا
أخنى وخانَ وقد كان الوفيَّ لهمْ ... لا غَرْوَ للدهر إنْ أخنى وإنْ خانا
صاح الجلاءُ بهم صوتاً فما لبثوا ... أن جاوبوه جماعات ووحدانا
فأصبحتْ دمناً تلك الربوعُ لهمْ ... وبُدِّلتْ بعدهم بوماً وغربانا
ظننتُ أنَّ قراهمْ بعدما درستْ ... أطلالُ ميٍّ وأنّي كنتُ غيلانا
ذُهِلْتُ من أسَفٍ حينَ استقلَّ بهمْ ... حادي العبور كأنّي كنتُ سكرانا
واخجلتي بعدهمْ إنْ لمْ أمتْ كمداً ... مُذ أزمعوا للنوى رَحْلاً وركبانا
تفرَّقوا بالفَلا أيدي سباً فثَوى ... نَجْعٌ بمصرَ ونجعٌ حلَّ حرّانا
وما استقلّوا إلى أن قلَّ صبرهمُ ... وكابدوا المحلَ في الأوطان أحيانا
إنَّ الكريمَ إذا ما خاف في وطنٍ ... ضيماً تبدلَّ بالأوطان أوطانا
كانوا يجيرونَ من جَوْرِ الزمان فقد ... أضحَوا من الجَوْر في الأمصار جيرانا
ليس الهوادجُ أحداجاً على إبلٍ ... تلك الجنانُ حَوَتْ حوراً وولدانا
الطالعات بدوراً إنْ سَفَرْنَ لنا ... والمايساتُ إذا أقبلنَّ أغصانا
كأنَّ أظعانهم والآل يرفعُها ... سفائنٌ أُشْرِعَتْ أو نخل بيسانا
قالوا الغرابُ دعا في الحي فاحتملوا ... وما رأيتُ سوى الأحمال غربانا
لا تندبوا الدار إن أقوتْ ولا طللاً ... ولا أواريَّ أفراسٍ وأشطانا
وخَلِّ ميَّةَ والخلصاء يندبُها ... غيلانُها وذرْ [سعدى] وحسّانا
وخلِّ رامة يبكيها جريرُ ودَعْ ... نُصَيْبَ ينددبُ حيّاً حلَّ ودَّانا

---

(١) انظر ابن واصل، جمال الدين محمد، مفرج الكروب في أخبار ملوك أيوب، ج٤، ص٢٥٧، وانظر: أبو شامة، الذيل على الروضتين في أخبار الدولتين، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٩٧٤، ص ١٠٢.

(٢) الزرعي، ديوانه، ص ٣٩.

دع المعاهـــد فـــالأعراب أجـــدر أن ... تبكـــي النّقـــا ورُبـــى نجـــدٍ ونعمانـــا
واندب قصورَ قرى حورانَ حين خلتْ ... وعُوّضتْ بَعْدَ سُـكنى الإنـــس جنَّانـــا
خوتْ عـــروشٌ بهـــا كانـــت مرفّعـــة ... مجداً، وجفّتْ غـــروس كـــنَّ صـــنوانا
شلَّ الزمـــانُ يـــدَ المعـــروف بعـــدهمُ ... وهـــدَّ مِـــنْ جبـــل العليـــاء أركانـــا
كم بين بُصرى إلى الرمثا إلى طفـــسٍ ... من الخراب إلـــى مـــا حـــول نجرانـــا
ولستُ أنســـى حِبـــالاً والســـراة ومـــا ... أصاب ماب إلـــى مـــا حـــول عَمَّانـــا
وبعـــد هـــذا أتـــى مـــا لا مـــردّ لـــه ... مـــن الفـــرنج إلـــى غـــوريَ بيســـانا
أســـراً وقـــتلاً ونهبـــاً حـــين أذكـــره ... يهـــيج تـــذكاره للقلـــب أحزانـــا
كم قريـــةٍ كـــان فـــي أكنافهـــا نفـــرٌ ... يمشـــون نحـــو العُلـــى شـــيباً وشـــبانا
شُـــمَّ الأنـــوف ســـراةً ســـادةً نُجُبـــاً ... في السِّلم والحـــرب أجـــوداً وشـــجعانا
من كـــلِّ أبلـــج وضّـــاح الجبـــين إذا ... بلوتَـــهُ كـــانَ مِطعامـــاً ومِطعانـــا
يقول من مـــات منَّـــا كـــان أســـعدنا ... وكلّ مـــن عـــاش منّـــا كـــان أشـــقانا
ما ذات طوقٍ على أيك الحمى صَدَحَتْ ... تُرجِّـــعُ النَّـــوحَ فـــي الأفنـــان ألحانـــا
أقصى الزمانُ لهـــا إلفـــاً فهـــاج لهـــا ... فراقُـــه والنـــوى همَّـــاً وأشـــجانا
كلاَّ ولا مُغْـــزِلٍ يرعـــى لهـــا رشـــأٌ ... ببطن وَجْرةَ رخْـــص الظلـــف أدمانـــا
لها كِنَاسٌ من الأرْطَـــى علـــى نَشَـــزٍ ... في روضـــةٍ أنبتـــتْ رَنْـــداً وحَوْذانـــا
أناخ صرفُ المنايـــا فيـــه إذ غفلـــت ... ســـمعمعاً أَهْـــرَتَ الشـــدقين غرثانـــا
فاغتالهـــا وقضـــاءُ الله لـــيس لـــه ... ردٌّ، ولا ردَّ للمقضـــــيّ إن حانـــــا
لهـــا بُغـــامٌ شـــديد حـــين تـــذكره ... إذا رأت عينُها فـــي الســـرب غزلانـــا
يوماً بـــأوجع منـــي إذ وقفـــتُ علـــى ... تلـــك القـــرى وتـــذكَّرتُ الَّـــذي كانـــا
ترى يعـــودُ إلـــى الأوطـــان ســـاكنُها ... فـــأنظرَ الـــدّارسَ الآيـــات عمرانـــا
صبراً على الدهر إن أبكى العيونَ وإن ... أنكى القلـــوبَ وإنْ أخنـــى وإن خانـــا
لابُدَّ في الدّهر مـــن عُســـرٍ وميســـرةٍ ... وأن تـــرى فيهمـــا ســـوءاً وإحســـانا

القصيدة من الناحية الفنية تعد إضافة جديدة إلى شعر الرثاء البلداني، الـذي قيل زمن الحروب الصليبية، وقد استهل الشاعر قصيدته بمطلع صوّر فيه انقـلاب أحوالها وجور الزمان على أهل حوران، لذلك أكثر من استخدام الدوال المفردة التي تتصل بالتبدل والتغير مثل (الجلاء، الدّمن، الغربان، الأطلال، النوى، القتل، النهب، درستْ.....).

ويصف الشاعر في قصيدته الهلع الذي أصاب به النفـوس مـن الفرنجـة، وترصدهم الناس، مما اضطرهم إلى ترك ديارهم بحثاً عن الملاذ الآمن:

صاح الجلاءُ بهم صوتاً فما لبثـوا أن جـاوبوه جماعـات ووحـدانا
تفرقـوا بالفـلا أيدي سباً فثـوى نجعٌ بمصرَ، ونجـعٌ حـلَّ حرّانـا
وما استقّوا إلى أن قـلَّ صَبرهـمُ وكابدوا المحل في الأوطـان أحيانـا

وحين يتحدث ابن عقيل عن المساحة الواسعة التي شملها الاجتياح الصليبي، وهدم معالم العمران البشري فيها، يذكر أسماء العديد من المواضـع الشـامية فـي حوران وغيرها بلغة سردية تقريرية وصفية:

واندب قصورَ قُرى حورانَ حيـن خلـتْ وعوّضتْ بَعْد سُكنى الإنس جنّانـا
خَوَتْ عروشٌ بهـا كانت مرفعـةً مجداً، وجفّت عروس كنّ صنوانـا
كم بيـن بصرى[١] إلى الرمثا[٢] إلى طفس[٣] من الخراب إلى مـا حَوْل نجرانـا[٤]
ولست أنسـى حبـالاً[١] والسـرَّاة[٢] وما أصاب مابَ[٣] إلى ما حول عمّانا

---

(١) بُصرى: تقع في جنوبي حوران إلى الشرق من درعا، ياقوت الحمـوي، معجـم البلـدان، (بُصرى).

(٢) الرمثا: مدين تقع شمال الأردن على الحدود السـورية. بيركهـارت، لـودفش، رحـلات بيركهارت، ترجمة أنور عرفات، عمان، وزارة الثقافة، ١٩٩٦م، ص ١٤.

(٣) طفس: قرية تقع اليوم قرب درعا جنوبيّ سوريا.

(٤) نجران: قرية إلى الشمال الغربي من السويداء في سوريا، الحموي، معجم البلدان، (نجران)

.

وبعد هذا أتـى مـا لا مـردَّ لـه   مـن الفرنـج إلى غوريّ بَيْسانـا

ويتسع الإيقاع التدميري في القصيدة ليشمل الإنسان المسلم والقيم التي يمثلها كما في قوله :

أسراً وقتـلاً ونهـباً حين أذكـرهُ   يهـيّجُ تـذكارُهُ للقَلْـب أحـزانا

كم قريـةٍ كان فـي أكنافهـا نفـرٌ   يمشون نحو العـلا شـيباً وشبّانـا

شمَّ الأنـوف سـراةً سـادةً نُجُبـاً   في السِّلم والحرب أجوداً وشـجعانا

يقول من مـات منّـا كـان أسـعدنا   وكلّ من عاش منّا كـان أشـقانـا

وينهى قصيدته بلوحة يرى المدققُ فيها ظبيةً انساحت في الأرض تطلب الكلأ تاركة صغيرها وراءها، فقيّض لها القدر ذئباً اغتاله ومزّق لحمه، يقول :

ما ذات طوقٍ على أيك الحمى صَدَحَتْ   ترّجعُ النَّوْحَ فـي الأفنـان ألحانـا

أقصـى الزمان لها إلفاً فهـاج لها   فراقـه والنّـوى همّـاً وأشجانـا

كلاّ ولا مُغزل يرعى لهـا رشـأْ   ببطنِ وجرة رخص الظلـف أدمانـا

لها كناسٌ من الأرطى على نَشَـزٍ   في روضةٍ أنبتتْ رَنْـداً وحَوْذانـا

أتاح صرف المنايا فيهِ إذْ غفلتْ   سَمَعْمَعَاً أهـرت الشـدقين غرثانـا

٥.١.٣ رثاء بيت المقدس سنة ٦١٦هـ:

يتطلع الفرنجة إلى بيت المقدس مرة أخرى، ويسعون إلى احتلاه من جديد، فيقدم المعظّم عيسى على هدم أسوارها سنة ٦١٦هـ، لكي يتسلمها الفرنجة إذا هم قرروا

---

(١) حبال: من قرى وادي موسى في الأردن، البغدادي، صفي الدين عبد المؤمن ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، لندن، مطبعة بيريل، ١٨٥٢، ج١، ص٢٨٣.

(٢) السراة: سلسلة جبلية إلى الجنوب من البحر الميت. المرجع نفسه، ج٢، ص١٠٠.

(٣) ماب: مآب ومؤاب: مدينة فـي جنـوب الأردن، الحمـوي، معجـم البلـدان، (مـآب)، وانظر:البغدادي، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاء، ج٣، ص٢٥.

ذلك وهي خراب لا ينتفعون بها كثيراً[١]، توفي المعظم سنة ٦٢٤هـ ليتفرد أخوه الكامل في تدبير شؤون بني أيوب، وفي عهده زار فردريك الثاني (الأنبرور) القدس سنة ٦٢٦هـ، وأخذها سلماً بعد مفاوضات وافق فيها الكامل على أن تسلّم المدينة دون سور[٢]، وقد كان لهذين الحدثين ردود فعل شعبية أوضحتها المصادر[٣]، كما كان لها أصداء في الشعر عامة، حيث شارك في رثاء المدينة شعراء من أقطار مختلفة[٤].

ولم يقتصر الأمر على شاعر واحد في رثاء بيت المقدس، فها نحن نرى محمد بن المبارك القرقسائي الخطيب الذي شخّص صورة القدس وجعل أجزاءها تتحدث بنفسها، وتآسى لما أصابها وتنقل للمتلقي وقع الأحداث عليها، حيث يقول[٥]:

مصابُ القدس قد سلبَ الرمادا ... وقد لبس الخطيبُ به حدادا
وقاضيه قضى نحباً وإن لم ... يمتْ لخراب ما أعلى وشادا
ونادى المسجد الأقصى أيرضى ... بهذا الفعلِ من فرضَ الجهادا
ومنبره الشريف يئنّ خوفاً ... وممّا حلّ بالمحراب مادا
ولا ترقى لصخرته دموعٌ ... فكم قد أقرحت أسفاً فؤدا
ولازم بابَ رحمته عذابٌ ... وسحَّ الطّورُ أدمعهُ وجادا
وأصبحت المدارسُ مُعولاتٍ ... تريق محابرُ الفتيا المدادا
وبيتُ خليلهِ وجلٌّ لما قد ... أصابَ سواهُ يرتعدُ ارتعادا

يصف الشاعر هنا الأجواء المأساوية التي سيطرت على مدينة القدس، من خلال رسم المشاهد الحية الملتقطة من واقع الحدث، والصورة التي يرسمها الشاعر لبيت

---

(١) أبو شامة، الذيل على الروضتين في أخبار الدولتين، ص ١١٥ -١١٦، وانظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٢، ص٣٢٠-٣٣٢٧، وانظر: الحنبلي، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص ٣٠٥.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٢، ص٣٢٩، وانظر: الحنبلي، شفاء القلوب، ص٣٠٦.

(٣) انظر: ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص٢٤١- ٢٤٢، وانظر: الحنبلي، شفاء القلوب، ص٣١١-٣١٣.

(٤)عبدالمهدي، عبدالجليل، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبيّة، عمّان، دار البشير، ١٩٨٩، ص١٧٨-٢٠٤.

(٥) المرجع نفسه، ص٢٣١.

المقدس صورة دينية مغلفة بمشاعر حزينة ترمي إلى تصوير التشويه الذي أصاب معالمها، والخراب الذي أصاب مقدساتها ومعاهدها والرعب الذي دبّ في البلدان المجاورة لها، حتى غدت ترتعد ارتعاداً.

ويرى شفيق الرقب بأن الشاعر في هذه القصيدة قد استعان " بوسيلتين للتأثير في المتلقي، الأولى : استثمار الخصائص الدينية للمكان، والاستكثار من الدوال المكانية التي تستوعب مظاهر القداسة فيها (المسجد الأقصى- المنبر- المحراب- الصخرة...) والثانية : استخدام الدوال الاشتقاقية التي تضفي على المكان ظلال الحزن والكآبة، وتنزع عنه صفة الجمود، وتجعله يحكي معاناته ويصفها بنفسه (نادى- يئن- ترقي- يرتعد.) [1].

وعند قمامة اليومَ التهاني تتيه ككاعبٍ جاءت تهادى
إذا سمعت بدمياطٍ وما قد أشيع تقولُ بُلِّغتُ المرادا
ولكن الكنائس ضاحكاتٌ تعالى الله يفعلُ ما أرادا

وأنهى الشاعر قصيدته بتساؤل مفعم بالألم والحسرة، أردفه ببيت أكدَّ حالة الانكسار التي سرت في النص:

أبعد خراب بيت المقدس خبٌ أشدُّ ولو توسَّدنا القتادا
على الدنيا وما فيها عفاء ولو نلنا بها السَّبع الشدادا

وعندما تنازل الملك الكامل عن القدس للفرنجة[2]، وقال ابن المجاور[1] قصيدة يرثي فيها الشاعر هذه المدينة، فقد نشر الشاعر في مستهل قصيدته جواً من الحزن وشكّل

---

(١) للاستزادة انظر: الرقب، صورة المدينة المحتلة في الشعر الشامي زمن الحروب الصليبية، ص٤٨.

(٢) كيفية التنازل: قدم الإمبراطور إلى عكا سنة ٦٢٥ه، ومعه جموع كثيرة من الألمان والفرنج، وكتب إلى الملك الكامل يطلب منه أن يُسلّمه القدس وجميع ما فتحه صلاح الدين، فراسله الكامل ولاطفه، وترددت الرسل بين الكامل وفردريك وانتهى الأمر بينهما أن يسلم إليه القدس على شريطة أن يبقى خراباً، ولا يجدد سوره، وأن لا يكون للفرنج شيءٌ من ظاهره التبه، بل يكون جميع قراياه للمسلمين، وللمسلمين والٍ عليها يكون مقامه بالبيرة من عمل القدس إلى شماليه، وأن الحرم الشريف بما احتواه من الصخرة المقدسة والمسجد الأقصى يكون بأيدي المسلمين، وقد تسلّمه الفرنج في أول ربيع الآخر من سنة ٦٢٦هـ، وكان ذلك في الوقت الذي كان فيه الناصر داود محصوراً في دمشق، يحاصره عمه الملك الأشرف. انظر: الحنبلي، شذرات الذهب، ج٥، ص١١٨؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص١٣٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ١٢ج١٢، ص٤٨٢-٤٨٣؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص١٢٣-١٢٤.

لغته تشكيلاً بكائياً خالصاً صائغاً ذلك في أساليب إنشائية تفصح عن مشاعره وحالته النفسية، وتتضمن في ذاتها النبرة الانفعالية التي توضح المعنى المراد فيقول(٢):

أعيـــنيَ لا تـــَرْقَىْ من العَبـــرَاتِ   صِلِي في البُكـــا الآصـــال بالبكراتِ
لعلّ ســـــيولَ الدّمعِ يطفئ فَيْضُها   توقُّدَ ما في القـــلب من جَمَـــــراتِ
ويا فـــَمُ بُحْ بالشَّجوِ منك لَعَـــلّهُ   يـــــروّح مـــا ألـــــقى منَ الكُرُبـَــاتِ

واستثارة لمشاعر المسلمين فقد أسهم الشاعر في الحديث عن فضـــائل هـــذه المدينة ومكانتها في العقيدة الإسلامية ومال إلى الاستقصاء والوقوف عند الجزيئـــات واستخدام العبارات التقريرية المعززة بالمنبهات الأسلوبية، فبدت الأبيات ضرباً من الحديث العاطفي المباشر والترداد الحزين لمآثر هذه المدينة:

على المسجد الأقصى الذي جَلّ قَدْرُهُ   على موطن الإخْبـــات والصَـلَوات
على منزل الأملاك والوحيِ و الهُدَى   على مَشْـــَهدِ الأبــْـــدالِ والبـــَدَلاتِ
على سُلّم المعراج والصخرةِ التـــي   أنَافَتْ بما في الأرض من صَخَـــرَاتِ
على القبلة الأُولى التي اتّجَهَتْ لهـــا   صلاةُ البرايـــا في اختلاف جِهـــَاتِ
على خيــــرِ معمورٍ وأكـــرمِ عامرٍ   وأشرفِ مبنــــــيٍّ لخيــــرِ بُنـــاةِ

ويصف الشاعر خراب المدينة بعد استيلاء الفرنجة عليها، وكيـــف أن الشـــعائر الإسلامية قد عُطلت فيها وخلت المدينة من أهلها، يقول:

عفاالمسجدُ الأقصى المبارك حوله الـــ   رّفيــــع العماد العالـــي الشّـــرُفاتِ
عفا بعدمـــا قد كان للخيـــر موســـماً   وللبـــرّ والإحســـان والقُرُبـــــاتِ
خلا من صلاةٍ لا يمـــلُّ مقيمهـــــا   توشَّـــحُ بالآيـــــــات والسّـــوَراتِ

---

(١) ابن المجاور، هو ابن أخت الوزير نجم الدين بن المجاور، وذُكر أنه كان في خدمة خالـــه نجم الدين بالقاهرة، وذكر أنه خرج إلى بوصير في خدمته، وكان قد مضى إليها متنزّهـــاً، وروى ابن ظافر الأزدي أنّه كان ويعقوب بن المجاور في الإسكندرية، أيام حلول الملـــك العزيز بها، وروى ابن ظافر جزءاً من أشعاره، كما روى ابن المُستوفي قليلاً منها. انظر: ابن المستوفي، تاريخ آربل، ج١، ص٣٣٥-٣٣٦.

(٢) انظر: عبدالمهدي، بيت المقدس في شعر الحروب الصليبية، ص٢٤٠.

خلا من حنيــن التــائبين وحزنهــــم فمن بيــــن نــوَّاحٍ وبيــن بكـــــاةِ

ويقرن الشاعر بيت المقدس بالأماكن المقدسة في الديار الحجازية، ويحثها علــى البكاء على ما حلّ بأختها القدس، مستخدماً أساليب فنية بالغة التأثير، كالاتكاء على جملة مركزية صدّر بها أبياته (لتبك):

لِتَــبْكِ على القدس البلادُ بأســـــرها وتُعلنُ بالأحـــــــزانِ والترحــاتِ
لتـــْـــبكِ عليها مكةٌ فهي أختــُـــــها وتشكــو الذي لاقت إلى عَرَفـــاتِ
لِتَبــْكِ على مــا حلَّ بالقُــدس طَيبــةٌ وتشرحه في أكــرم الحُجــُـــراتِ

وينهي ابن المجاور قصيدته بالبكاء، وهنا يستعير بيتاً من دعبل الخزاعي في رثاء آل البيت، ويدمجه في القصيدة فيقول :

فَمَنْ لي بنواحٍ يَنُحْن علــى الــذي شَــجَاني بأصْــوَاتٍ لَهُــنّ شُجـــاةِ
يُرَدِّدْنَ بيتــــاً للخُزاعــيِ قالــه يـــُـؤبّنُ فيــه خيـــرة الخيــراتِ

٢.٣ الغزو المغولي:

ولم يكن الغزو الصليبيّ المحنة الوحيدة الذي واجهته أمتنا في تاريخها الطويــل، فقد تعرضت الأمة في أواسط القرن السابع الهجري لهجمة أخرى تمثلــت فــي الغــزو المغولي، وكان للغزو المغولي أصداء في الشعر العربي، ولم يكن للصراع بين المسلمين والمغول ساحة محددة المعالم، إلا أن الباحثين استطاعوا تحديد تلك الساحة بــالنظر إلــى مراحله، فمنذ انطلاقه سنة ٦١٧هــ إلى سقوط بغداد سنة ٦٥٦هــ " شملت الساحة بــلاد الإسلام الواقعة من حدود العراق إلى تركستان..." [١]، وقد استفحل أمر المغــول واشــتد إفسادهم من أقصى بلاد الصين إلى أن وصلوا إلى بلاد العراق وما حولها، حتى انتهــوا إلى اربل[٢] وأعمالها، فملكوا في سنة واحدة ســائر الممالــك إلا العــراق والجزيــرة[١] ومصر... "[٢].

---

(١) تركستان: اسم جامع لجميع بلاد الترك، وأول حدهم من جهة المسلمين فــاراب، ومــدائنهم المشهورة ست عشرة مدينة، انظر: البغدادي، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاء، ج١، ص٢٥٩.

(٢) أربل: مدينة تعد من أعمال الموصل، انظر: الحموي، معجم البلدان، ج١، ص١٣٨.

وكان المغول يخرجون بين حين وآخر إلى المدن الإسلامية التي امتدت إليها التعمير، فيعملون فيها نهباً وسلباً، وفي أهلها قتلاً وسبياً[٣]، فمن المدن التي تعرضت للأذى المغولي، ونزلت بهم نكبتهم، مدينة حلب، فقد غزتها جيوشهم سنة ٦٥٨هـ، وفتحوها بالأمان " ثم غدروا بأهلها، وقتلوا منهم خلقاً لا يعلمهم إلا الله، ونهبوا الأموال، وسبوا النساء والأطفال، وجرى عليهم قريب مما جرى على أهل بغداد[٤]، فجاسوا خلال الديار، وجعلوا أعزة أهلها أذلة، وامتنعت عليهم القلعة شهراً، ثم استلموها بالأمان، وخرب أسوار البلد، وأسوار القلعة، وبقيت حلب كأنها حمار أجرب....." [٥].

وقد رثى حلب ووصف ما حل بها الصاحب كمال الدين ابن العديم، بقصيدة بقي بين أيدينا منها أبيات قليلة[٦]، لا تحمل تفصيلاً، فقد هدمت المساجد، وخربت المدارس، وعبث الغزاة بكتبها وألقوا بها إلى الأرض، ويختتم الشاعر قصيدته بالرضى بقضاء الله، الذي له حكمة في كل ما يفعل، ومن ذلك يقول[٧]:

وعن حلب ما شئت قل من عجائب أحلّ بها يا صاح أن كنت تعلمُ

---

(١) الجزيرة: وهي التي بين دجلة والفرات، مجاورة الشام، تشتمل على ديار مضر وديار بكر، بها مدن جليلة ومنها: حران والرها والرقة ورأس عين ونصيبين، انظر: المرجع نفسه، ج٢، ص١٣٤.

(٢) انظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٢، ص٣٥٩. ابن كثير، البداية والنهاية في التاريخ، ج١٣، ص٨٦، ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٣٣ – ٢٣٤.

(٣) انظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٢، ص٤١٩– ٤٧٦.

(٤) للاستزادة انظر: جرار، مأمون، أصداء الغزو المغولي في الشعر العربي من القرن السابع إلى القرن التاسع للهجرة، مكتبة الأقصى، عمان، الأردن، ١٩٨٣م، ص ١٤٠.

(٥) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٢١٨، وانظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٧، ص٧٦.

(٦) انظر: الطباخ، الشيخ محمد راغب، أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، المطبعة العلمية، حلب، ١٩٢٣م، ج٢، ص٣١٤، حيث يذكر أنه بحث عن هذه القصيدة كثيراً فلم يجد أكثر مما رواه أبو الفداء.

(٧) أبو الفداء، محمد، تقويم البلدان، دار الطباعة السلطانية، باريس، ١٨٤٠م، ج٣، ص٢١٥.

فيا لك من يوم شديــد لغــامــهُ وقد أصبحت فيــه المســاجد تهــدمُ
ولكنــّما لله فــي ذا مشيئــةٌ فيفعل فينــا ما يشــاء ويحكــم

وقد كتب المؤرخ الشاعر ابن حبيب(١)، أبياتاً في وصف حال حلب عند سقوطها بيد المغول، فقد خلت حلب من أهلها، وتفرق جيشها، وأصيبت القلاع والأسوار، وخلا المساجد من عماره، أن ما حلّ بحلب يشبه انقطاع عقد جواهر، وانتثارها بعد انتظام، ومن ذلك يقول(٢):

حلب خلــت مــن أهلهــا وتفرقــت من جيشهــا بعد النظام جمــوعــهُ
والقلعــة الشــهباء أدهــمَ حظُّــها وأبــى وتخت الملك حــُطّ رفيعه
وانقــضّ ركــن مقامهــا وتســاقطت أبراجهــا والجســر طال خضوعه
والجامع المعمور أمســى مفــردا ونــأى ســجود حليفــه وركوعــه
ومحاسن الأسوار سارت وانطــوت وذوت أصــول بنــائه وفروعــه
نُثــرت عقــود الجوهريّ وللشــقا نجم على السعديّ كــان طــلوعه
يا أهلهــا الباقيــن للبيــن اصبروا فالأمــر لله العلــي جميعــه

وقد أصاب دمشق نصيب من أذى المغول، عنــدما وقعــت بأيــديهم ســنة ٦٥٨هـ، وذلك بعد استيلائهم على حلب، " فأخذوها سريعاً من غيــر ممانعــة ولا مدافع، بل تلقاهم كبارها بالرحب والسعة، وقد كتب هولاكو أماناً لأهل البلد، فقــرئ بالميدان الأخضر، ونودي به في البلد، فأمن الناس على وجل من الغدر، كما فعــل بأهل حلب، وهذا والقلعة ممتنعة مستورة، وفي أعاليها المنجنيق منصوبة، والحــال

(١) هو الحسن بنو عمر الملقب بدر الدين الدمشقي الحلبي، ولد سنة ٧١٠هـ، وكــان مغرمــاً بالأدب وله في التاريخ: درة الأسلاك في دولة الأتراك، مــات ســنة ٧٧٩هـــ انظــر: الشوكاني، محمد بن علي، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، القــاهرة، ١٩٢٩م، ج١، ص٢٠٥.

(٢) ابن حبيب، درة الاسلاك، ج١، ص٣٧.

شديدة....." [1]، وقد انتهى أمر القلعة إلى التسليم، فخربوها، وهدموا بروجها، لكن لم يسجل الشعر حال دمشق مع المغول في هذه الحادثة.

لكن في سنة ٦٩٩هـ، استطاع المغول السيطرة على دمشق، بعد انتصارهم على المسلمين في وادي الخزندار، فارتفعت الأسعار، وعم الغلاء، وأحرقوا فيها كثيراً من المساجد والمدارس، وعم النهب[٢]، وقد سجل علاء الدين علي الاوتاري الدمشقي[٣] بعض ما جرى في دمشق، إذ يقول[٤]:

أحسن الله يا دمشق عزاك ... في مغانيك يا عماد البلاد
وبرستاق[٥] نيربيك[٦] مع المِزَّةِ[٧] ... مع رونق بذاك الوادي
وبأنس بقاسيون وناس ... أصبحوا مغنا لأهل الفساد
طرقتهم حوادث الدهر بالقتل ... ونهب الأموال والأولاد
وبنات محجبات عن الشمس ... تناءت بهن أيدي الأعادي
وقصور مشيدات تقضت ... في ذراها الأيام كالأعياد
وبيوت فيها التلاوة والذكر ... وعالي الحديث بالإسناد
حرقوها وخرّبوها وبادت ... بقضاء الإله ربّ العباد
وكذا شارعُ العُقيبَةِ والقصر ... وشاغورها[١] وذاك النادي

---

(١) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٢١٩.

(٢) انظر: المرجع نفسه، ج١٤، ص ٨-١٠.

(٣) علي بن إسماعيل الدمشقي القواس، كان حسن المجالسة، حدث وله نظم توفي سنة ٧٣٦هـ، انظر: ابن حجر ، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج٣، ص٩٧.

(٤) انظر: علي، محمد كرد، خطط الشام، مطبعة المفيد، دمشق، ١٩٢٨م، ج٦، ص٣٧٦.

(٥) برستاق: كل موضع فيه مزدرع وقرى وهو فارسي، انظر: الزبيدي، تاج العروس، ج٦، ص٣٥٥.

(٦) نيربيك: من قرى دمشق وجاءت بلفظ النيرب، انظر: الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص٣٣٠.

(٧) المزة: من قرى دمشق، انظر: المرجع نفسه، ج٥، ص١٢٣.

وما أورده الاوتاري في قصيدته، يتفق مع ما أورده ابن كثير في هذا الشأن، فقال:

"وفي يوم السبت النصف من ربيع الآخر، شرعت التتار وصاحب سيس في نهب الصالحية، ومسجد الأسدية، ومسجد خاتون، ودار الحديث الأشرفية بها. واحترق جامع التوبة بالعقيبة، وكان هذا من جهة الكرج والأرمن من النصارى، الذين هم مع التتار قبحهم الله، وسبوا من أهلها خلقاً كثيراً، وجماً غفيراً، ويقال أنهم قتلوا من أهل الصالحية قريبا من أربعمائة، وأسروا نحوا أربعة آلاف أسير، ونهبت كتب كثيرة من الرباط الناصري، والضيائية، وخزانة ابن البزوري، وكانت تباع وهي مكتوب عليها الوقفية، وفعلوا بالمزة مثل ما فعلوا بالصالحية...."(٢).

---

(١) من ضواحي دمشق وقراها، انظر على التوالي: المرجع نفسه، ج١، ص٣٧٨، ج٤، ص٣٥٥، ج٣، ص٣١٠.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٤، ص٨. وانظر: المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص٨٩٣- ٨٩٥

الفصـــــل الرابع
التصوير الفني للمدينـــة الإسلامية

١.٤ مصادر الصورة:

تعدُّ الصورة تشكيلاً نفسياً قبل أن تكون تشكيلاً فنياً جمالياً، ترتبط بفكر الشاعر، وبالعوامل التي أسهمت في تكوين نتاجه الشعري، ولا تقتصر الصورة على الأنواع البلاغية المعروفة من تشبيه واستعارة وكناية، وإنمّا تتعداها إلى عناصـــر الإيحـــاء المختلفة. وسيحاول هذا الفصل أن يستقصي جوانب الصورة في الشعر الشامي الذي وصف المدن زمن الحروب الصليبية، اعتماداً على الـــربط بـــين الشـــعر والواقـــع الاجتماعي الذي أفرزه من جهة، والربط بين الشعر والمؤثرات النفسية التي شـــكلته من جهة أخرى. ولن يغفل النواحي الجمالية الناتجة من تشكيل الصورة، كمـــا لـــن يغفل دور الإيقاع النغمي في إعطاء الصورة جرساً خاصاً لدى هؤلاء الشعراء.

وقد تعددت المصادر التي استرفد الشعراء منها صـــورهم، ومـــن أبـــرز هـــذه المصادر:

١.١.٤ القرآن الكريم

تفنن الشعراء الشاميون في القرن السادس والسابع الهجريين من الإفادة من آيات الذكر الحكيم، واستحضار ألفاظه وتراكيبه وصوره، ليدخل بنية الآية القرآنيـــة فـــي شعره، ويدمجها في سياقه بغض النظر عن نوع العلاقة بـــين الـــنص والمســـتدعى والمعنى الشعري الذي قصد الشاعر إليه.

وقد استخدم الشعراء التلويح والإيماء إلى بعض القصـــص القرآنيـــة الموحيـــة للتعبير عن الفكرة التي يريدها في عبارة موجزة، ومن أبرز هؤلاء الشعراء فتيـــان الشاغوري، فعندما تأخر عسكر الملك الأفضل عن دخول دمشق، قال فتيان في ذلك بيتين ملوحاً بقصة أهل الكهف الذي طال نومهم:

إنْ غابـــت الشـــمسُ عـــنهمُ وهـــمُ لم يدخلوا في عشية البلـــــــــدا
فاتْلُ عليهم أنباء ما جاء فـــي الـــــ كهف، ولن يفلحوا إذن أبـــــــــدا

فالشاعر هنا يتماس مع قصة أهل الكهف، وهو تماس يوحي إلى المتلقي باستحضار النص القرآني الغائب المتمثل في قوله تعالى: " فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا "[1]، ولعل الشاعر أراد استنهاض الجيش على النهوض إلى دخول دمشق.

ونرى مثل هذا الإيماء الذي يعد دليلاً على صحة المعنى الذي يطرحه، كما في قوله يحاج في أرض سلبت منه[2]:

عجباً لمن ملك البلاد بأسرها وابتزّني شبراً بها مُلّكْتُهُ

فقضيتي في النص في القرآن مع داود والخصم الذي أشبهتهُ

ونستطيع أن نربط هذا بقول الله تعالى : "قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإنّ كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وقليلٌ ما هم، وظنَّ داود أنمّا فتناه فاستغفر ربّهُ وخرَّ راكعاً وأناب"[3].

وبثَّ فتيان الشاغوري في قصائده كثيراً من التراكيب القرآنية بعد تحويرها ونقلها إلى معانٍ شعرية، لكنها لا تخرج عن التأثر بالأسلوب القرآني، كما في قوله يصف دمشق، وينوه بعدل صاحبه[4]:

دمشق هي الفردوس طيباً وعدله هو الشمس لم يجعل له دونها سترا

فهنا يقرن دمشق بالفردوس طيباً وجمالاً، ويشبه عدل الممدوح كالشمس في الظهور والانتشار، وهذا مستوحىً مع النص القرآني في قوله تعالى: " حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا "[5].

ويولد الشاعر أحياناً من النص القرآني معنى جديداً بأن يتصرف قليلاً في الآية الكريمة، فهو يأخذ قوله تعالى : " فصبّ عليهم ربُّكَ سوط عَـذَابٍ "[6]، ويعدّل سياقه، فيقول[1]:

---

(١) سورة الكهف، آية١١.

(٢) الشاغوري، ديوانه، ص٥٦.

(٣) سورة ص، آية ٢٤.

(٤) الشاغوري، ديوانه، ص١٥١.

(٥) سورة الكهف، آية٩٠

(٦) سورة الفجر، آية ١٣.

وصبّ على الأعداء ســوط مذلــة وأنافُهم رُغْــمٌ، وأوجهُهُــم رُبــدُ

فهو لم يأخذ الآية الكريمة على هيئتها في أصولها، بل تصرف بها عن طريــق التبديل، فاستبدل بكلمة (عذاب) كلمة (مذلة)، وتولد هذا التبــديل صــورة ذات طاقــة إيحائية جديدة.

وأحياناً يحتاج الوقوف على هذا الاستدعاء إلى بعض التأمل والتدبر لامتزاجــه في نسيج النص الشعري من ناحية، وتعدد الاستدعاءات من ناحية ثانية، وهذا ما نــراه عند الرشيد النابلسي، إذ يقول في وصف حصن كوكب[٢]:

ولو صَدَمْتَ به السدَّ الذي اطأدت قطراه لاندكّ منه القعــرُ والزّبــرُ

لقد رأى كوكبٌ في نفسه عجبــاً وكاد كوكبــــُه الدريّ ينكـــــدرُ

أضرمت جذوةَ بأسٍ في جوانبــهِ أنفاسُها في نفوس الشركِ تزدفــرُ

فقد مزج في هذه الأبيات التي تصف منعة حصن كوكب بين عدة مواقع قرآنية : "ءاتــوني زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله ناراً قال ءاتــوني أفــرغ عليه قطـــــرا"[٣]، وقوله تعالى: "الزجاجــة كأنهــا كوكــب درى"[٤]، وقوله تعالى: "إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً"[٥]، وتحول بها عن سياقها لبناء صور جديدة تؤدي وظيفة دلالية قريبة من وظيفتها القرآنية.

---

(١) الحنبلي، شفاء القلوب، ٣٤٣.

(٢) المرجع نفسه، ص٢٢٢.

(٣) سورة الكهف، آية، ٩٦.

(٤) سورة النور، آية ٣٥.

(٥) سورة الفرقان، آية ١٢.

ويستوحي ابن القيسراني القصص القرآني حين يصور فتك نور الدين بحصن العريمة[١] وتدميره له، فيقرنه بقوم ثمود الذين عقروا الناقة، فصب الله عليهم عذابه، إذ يقول[٢]:

وعارَمَ يوماً بالعُرَيمةِ فاغْتَدَتْ كوادي ثمودٍ إذ رغـــــا فيه سَـبْقُه

ومن الصور المتكررة لمدينة دمشق صورة الجنة التي تجـري مـن تحتهـا الأنهار، ويحظى ساكنوها، بأصناف من النعيم، فيعيشون في فرح وحبور، كما فـي قول ابن منير[٣]:

دار هي الجنـة المحبـور سـاكنها إنْ لـم تكنِهـا وإلاّ فهـي تحكيهـا

ودار نور الدين كعبة محفوفة بالطائفين[٤]:

لا تـزلْ دارك كيـف انتقلـت كعبـةً محفوفـةً بالطائفيـن

وحلب بعدما طرد نور الدين الروافض منها، غدت داراً حراماً مثـل مكـة المكرمة، يقول ابن منير[٥]:

وما "حلبُ" البيضـاء مُـذْ صـنتها إلاّ حـرامٌ مثـل "أم القـرى"

أما الأحداث السياسية فكان له دور واضح وجلي في شعر الشعراء الشاميين، إذ دفع الاضطراب السياسي إلى أن يستمد الشعراء مصـادر صـورهم، ولا سـيما الصّراع الذي احتدم بين أبناء صلاح الدين على السلطة، فعندما فتح الملك الكامـل

---

(١) العريمة: حصن قريب من طرابلس، (معجم البلدان: العريمة) انظر حوادث سنة ٥٤٣هـ في: ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص٤٦٦-٤٦٧، ابن الأثير، الكامل في التـاريخ، ج٩، ص٢١، ابن واصل، مفرج الكروب، ١: ١١٤، وادي ثمود: بالحِجر بين الحجاز والشام، يمرّ به المسافر بطريق البرّ، وفيه آثار مدائن النبي صالح عليه السلام، رغـا: صـوّت وضـج، والرغاء صوت الإبل، السقب: ولد الناقة. انظر: ابن كثير، أبو الفداء إسـماعيل الدمشـقي، تفسير القران العظيم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٦٩م، ج٢، ص٤٥٠-٤٥١.

(٢) ابن القيسراني، شعره، ص ٧٧.

(٣) ابن منير، ديوانه، ص ١٧٨.

(٤) المرجع نفسه، ص٢٠١.

(٥) المرجع نفسه، ص٢٠٧.

دمشق بعد المعظّم عيسى، وأعطاها الملك الأشرف موسى، قال ابن عنين بيتين مزج فيهما الهزل بالجدّ الذي ينطوي على قدر كبير من المرارة(١):

وكنّـــــا نرجيّ بعد عيســى محمّداً ليُنقذنا من لاعج الضـّـرّ والبلـــوى
فأوقعنا في تيــه موســى فكلّنـــا حيارى ولا مَنٌّ لديــه ولا سلـــوى

٢.١.٤ الإنسان:

من المصادر التي استقى منها الشعراء صورهم الإنسان في سلوكه وصفاته، ولعل الصورة المتكررة للمدينة في الشعر الشامي هي صورة امرأة، وقد تبدت هذه المرأة في أحوال متعددة، فإذا كانت المدينة قد استردت من الأعداء عنوة فإنّ الشاعر يصورها امرأة عذراء عفيفة لم ينل الأعداء من شرفها (حصان الـذيل لـم تقـذف بسوء)، كما في قول ابن الساعاتي يصف طبرية وكيف أنها "مدينة حصان"(٢):

حَصانُ الذيلِ لم تُقْذَفَ بسوءٍ وَسَـلْ عنهـا الليـالي والسـنينَا
فَضَضَتْ ختِامَها قَسْراً فَمَنْ ذا يَصـدَّ الليـثَ أنْ يَلِـجَ العَرِينـا

وقد يتحدث الشعراء عن افتضاض البطل لهذه المدينة (العروس) قسراً، بيـد أنها تلين له في النهاية لأنّها وجدت فيه الزوج الذي ترضاه، كما فـي قـول ابـن القيسراني في مدينة الرُّها(٣):

مدينة أفكٍ منذ خمسين حجةً يفـلُّ حديـد الهنـد عنهـا حُـدادُهُ
وجامحةٌ عزَّ الملوك قيادها إلى إن ثنـاها مـن يعـزٌّ قيـادهُ
وصدّت صدود البكر عند افتضاضها وهيهات كان السيف حتمـاً سـفادهُ

ولا تكاد تختلف تفاصيل الصورة التي رسمها شهاب الدين محمـود لمدينـة طرابلس بعد أن استردها المسلمون بقيادة الملك المنصور بن قلاوون عـن صـورة

---

(١) ابن عنين، ديوانه، ص ١٣٢.
(٢) ابن الساعاتي، ديوانه، ج٢، ص٧٥.
(٣) ابن القيسراني، شعر ابن القيسراني، ص١٤٨.

طبرية، فقد ظهرت المدينة في صورة فتاة ممنعة تعاونت علـى اقتحامهـا عزيمـة الممدوح، ويلاحق الشاعر الصور الأنثوية فيصف المدينة بأنها (بكر) وأنّها لحظـة فتحه لها (انثنت تميد)... يقول[1]:

ممنّعةٌ بكرٌ وهل فـي جميـع مـا تملَّكتـه إلاّ ممنَّعـةٌ بـكرُ
فكم مرَّ من دهرٍ ومـا مسَّـها أذى وكـم راح من عصرٍ وما راعاها حصرُ
ففاجأتها بالجيش كـالموج فانثنـتْ تميدُ وقـد أربـى علـى نحرهـا السَّـبرُ
فزلزلتها بـالرَّكض فانهـدَّ ركنُهـا ولم يبـقَ مـن دون المنايـا لهـا سـترُ

وإذا كانت المدينة المحتلة تنتظر يوم التحريـر، فـإنّ الشـاعر يصـورها " عروساً بكراً " تزف نفسها للرجل الذي يخلصها من الأعداء، ويعيد لها حريتها التي سلبت، ومن ذلك يقول الملك تقي الدين عمر[2]:

جَاءتْك أرضُ القدسِ تَخْطبُ ناكحاً يا كفأها ما العُـذرُ مـن عَـذْارئِها
زُفَّتْ إليكَ عروسَ خدرٍ تُجْتَلي ما بَيْنَ أعبـدها وبَـيْنَ إمائـها
إيهٍ صلاحَ الدّين خُذْها غادةً بِكْراً، ملوكُ الأرضِ مـن رُقبائِهـا

ويرسم ابن منير صورة موسعة لمدينة حلب، بعد أن طرد الروافض منهـا، استوحى عناصرها من الحياة الأنثوية، فمثلها في هيئة امرأة مريضة أزال نور الدين شكاتها فبرأت) وأخذت تتبختر في ثوب قشيب من العدل والبذل، ومن ذلـك يقـول ابن منير[3]:

تَبَخْتَرُ فـي كسـا عـدلٍ وبـذل مدَّبـجة التَّـهائم والنَّجـاد

---

(١) ابن حبيب، درة الأسلاك، ج١، ص١٨٧.
(٢) الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء الشام، ج١، ص٨٦.
(٣) ابن منير الطرابلسي، ديوانه، ص ٢٠٤.

وكذلك مدينة حلب عند ابن الساعاتي، تراءت في صورة امرأة لم تعص صلاح الدين تمنعاً وتأبياً، وإنّما غضبت وغارت لأنه أهملها، واهتّم بغيرها من المدن الشامية، إذ يقول(١):

هي العقيلة حُسنا والزمان بها ... متيَّم كَلِفُ الأحشاء غير خلي
رشيقة القدّ لا تسمو إليه يدٌ ... أسيلة الخدّ لا تدنو من القبلِ
بكر المعاقل فاخطبها مكابرة ... بكلّ ألمى أصم الكعبِ معتدلِ
فما سواك لها بَعْل وقد عطلتْ ... فَحَلها بتلافيها من العطلِ
غارتْ، وحقَّك، من جاراتها فشكتْ ... ما باله بافتضاضي غير محتفلِ

وراوح الشعراء بين صورة المرأة البكر الممتنعة تأبياً وبين صورة المرأة المتبرجة في سياق حديثهم عن المدن التي فتحها الزنكيون والأيوبيون لتوحيد بلاد الشام، فقد انشد ابن القيسراني قصيدة رسم فيها صورة محببة لدمشق، إذ خطبها نور الدين ووافق وليها على ذلك، وقد قدّم إليها مهراً كبيراً من الآمن والعدل، وأصبحت على مر الأيام تسر حباً لنور الدين، على الرغم من امتناعها عنه في البداية وذلك دلالا منها، فيقول(٢):

خطبتَ فلمْ يحجُبك عنَّها وليّها ... وخطبُ العُلى بالسيف ما دونه سترُ
جلاها لك الإقبال حورية السنّا ... عليها من الفردوس أردية خضرُ
خلوبٌ أكنّتْ من هواك محبةً ... نَمَتْ فانتّمتْ جهراً، وسرُّ الهوى جهرُ
فسُقْتَ إليها الأمنَّ والعدلِ نحلةً ... فأمستْ ولا أسرٌ تخافُ ولا إصرُ
فإنْ صافحتْ يُمناكَ من بَعْد هَجْرها ... فأحلى التلاقي ما تقدمهُ هجرُ
وهل هي إلاّ كالحصان تمنَّعتْ ... دلالاً، وأن عزَّ الحيا وغلا المهرُ
ولكنْ إذ ما قستها بصداقها ... فليس له قدرٌ وليس له قدرُ

---

(١) ابن الساعاتي، ديوانه، ج٢، ص٣٨٣.
(٢) ابن القيسراني، شعر ابن القيسراني، ص١٩٤.

ونرى المدينة في صورة امرأة عند شهاب الدين محمود الحلبي، إذ استطاع الشاعر رسم لوحات فنية متعددة لها لعل أجملها تلك اللوحة التي وصف فيها حصن المرقب مصورّا ارتفاعه الشاهق، ومطاولته نجوم السماء، مشبها إياه وقد لفه الظلام بالغادة الحسناء، فيقول[١]:

أَوْرَدتَها المرقبَ العالي وليس سوى ماءِ المجرّة في أرجائــه نَهَــرُ

كأنّــه وكــأنّ الجــوَّ يكنفــهُ وَهْــمٌ تمثّــله في طيّها الفِــكَرُ

يختال كالغادة العذراء قد نُظمتْ منه مكان اللآلــي الأنجــم الزُّهُــرُ

له الهلالُ سوارٌ والسهّــا شُــنفٌ والقلب قُلبٌ ومســوَدُّ الــدجى طُــرَرُ

ويبدو أنّ صورة الفتاة الحسناء استهوت الشاعر، لذا عاد في قصيدة أخرى وصف فيها حصن المرقب إليها، فشبّهه بعذراء ترفل في ثياب من الذهب لكثرة الأسلحة التي أحاطت به، مستوحياً آي الذكر الحكيم في تصوير صعوبة الاقتراب منه، ويقظة الفرنجة في حراسته والدفاع عنه، إذ يقول[٢]:

والحصنُ من شفق الحديد كأنّه عــذراء ترفــل فــي رداءٍ مُــذهبِ

سامىَ السماء، فمن تطاول نحوه للســمع مســترقاً رمــاه بكوكــبِ

والرها في شعر ابن منير أخت الكواكب عــزّاً[٣]، وهــي أخــت الــنجم[٤]، وحمص أخت النجم وقد تشامخ أنفها عزّاً[٥]، وهي فتاة حسناء أكره ملــك الفرنجــة على طلاقها[٦]، وعزاز (أم النجوم) وفتاة (عذراء) افترعها نور الدين بالوشيج[٧].

---

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٧، ص٣١٧.

(٢) ابن حبيب، درة الاسلاك، ج١، ص١٢٥.

(٣) ابن منير، ديوانه، ١٩٦.

(٤) المرجع نفسه، ١٩٩.

(٥) المرجع نفسه، ٢٢١.

(٦) المرجع نفسه، ٢٢١ .

(٧) المرجع نفسه، ٢٢٢.

وشبه ابن القيسراني الثغور الشامية بعد تحرير نور الدين لها، بالفتيات اللواتي يضحكن فرحاً واسفرن عن ثغور جميلة، وأسنان براقة، يقول[١] :

يا من أعادَ ثُغورَ الشامِ ضاحكةً من "الظُبى" "عن" ثُغورٍ زانِها الشَّنبُ

وتبدو الرُّها التي قاومت نور الدين ثم استسلمت له في صورة امرأة حمقاء في شعر ابن القيسراني، يقول[٢]:

كيوم الرُّها الوَرهاء والهامُ يانعٌ مَلِيٌّ برعيِ الهُنْدُوانيِّ خصْبُه[٣]

وكذلك كثرت الصور المستمدة من عالم الإنسان في وصف الشعراء للمشهد الطبيعي للمدن الشامية، فالقاضي محي الدين الشهرزوري يرى أن روض دمشق (ضاحك الزهر)، وذلك إذ يقول[٤]:

وتعثَّرْ بكلِّ روضٍ أنيقٍ ضاحكِ الزهرِ من بُكاءِ الغَمام

أما علم الدين الشاتاني[٥] فيرى أن المطر بكاء أعين السماء، فأضحك ذلك الروض التي بدت في زينتها مثل الغواني، يقول[٦]:

وبكتْ أعينُ السماء بدمعٍ أضحك الأرض فالربى، كالغواني

ويمثل ابن الساعاتي سماء دمشق وقد تناثرت فيها الغيوم، فتاة لبست قناعاً، يقول[٧]:

أرأيت أحسن من ملاءةِ أرضها وسماؤها لبست قناعَ دُجونها

---

(١) ابن القيسراني، شعر ابن القيسراني، ص٧٤.

(٢)المرجع نفسه، ص٧٧.

(٣) الورهاء: الحمقاء، من الوره وهو الخُرق والحمق. الهام: جمع الهامة وهي الرأس، الهندواني: السيف المطبوع من حديد الهند.

(٤) الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء الشام، ج١، ص٣٣١.

(٥) هو أبو علي الحسن بن سعيد بن عبدالله، الملقب بعلم الدين، وشاتان من نواحي ديار بكر، ولد سنة ٥١٠هـ، وتوفي سنة ٥٩٩هـ، انظر ترجمته عند ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء الزمان، ج١، ص١٤٠، ابن عساكر، تهذيب تاريخ دمشق الكبير، ج٤، ص١٧٧.

(٦) الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء الشام، ج١، ص٣٦٨.

(٧) ابن الساعاتي، ديوانه، ج١، ص ١٢٥.

وتتعدد في الأبيات التالية التي قالها ابن الساعاتي، الصور المفردة المستمدة من عالم المرأة في وصفه ربيع إحدى المدن، يقول(١):

والبرقُ طلقٌ كالأحبة ضاحك　　في حجر غـيم كالرقيـب معـبس

والروضُ فيه من الحسان ملامح　　وضـاحة للنـاظر المتفـرس

فخدوده وردٌ وهيف قدوده　　قُضبٌ ودُعج عيونه مـن نـرجس

وحين مدح ابن الساعاتي الملك المعظّم عيسى، نوّه باهتمامه بمدينة دمشق وصوّرها عروساً حَصاناً زُفّت إليه، وقد نظم لها الغيث عقداً ثميناً زان جيدها، وقد افتخرت هذه المدينة ببعلها، يقول(٢):

عروسٌ حَصانٌ كان يوم زفافها　　من الدّهر عيـداً للسّـماخ وموسـما

له ركبت خيل الأماني مغيرةً　　ومـا ركبـت إلاّ لتغنـى وتغنّـما

ونظّمت الأنواء عقداً مفّصلاً　　يزين من البطحـاء بُـرداً مسـهّما

بهِ عرفتْ أنَّ البُعولَ حصانةٌ　　فلا رجعتْ يوماً مـن الـدّهر أيّمـا

ويرسم ابن منير صورة طريفة لربيع دمشق وأنواع الأزهار الذي تفتحت فيه، فيصوره فتاة جمعت ضروباً من الحسن من سواد شعرها، وحمرة خـدّها، وبيـاض مبسمها، وخضرة عينها، ومن ذلك يقول(٣):

أبدتْ دمشقُ ربيعاً جلَّ صانِعُهُ　　يأتيك في كل حـينٍ غيـر مكنـونِ

سودُ الذّوائب في حُمْر الخدُود على　　بيضِ المباسِمِ في خُضْـر الجفـانين

ويمثل ابن منير مدينة دمشق وقد سقتها الغوادي فربت أرضها في صورة امرأة تهتز أعطافها تيهاً وخيلاء، يقول(٤):

سَقَى دمشقَ ومغنىً للهوى فيها　　حَيـاً تهتـز لـه أعطافهـا تيهـاً

---

(١)ابن الساعاتي، ديوانه، ج١، ص١٢٦.

(٢)ابن الساعاتي، ديوانه، ج١، ص١٧٩.

(٣) ابن منير، ديوانه، ص ١٧٥-١٧٦.

(٤) المرجع نفسه، ص ١٧٨.

ويمزج ابن منير بين مظاهر إنسانية متعددة حين يصف ربيع دمشق، وما فيه من أزاهير متنوعة، فتبدو الرياض في ناظريه فتيات حساناً ترتدي ثياباً قشيبة تختال بها، أما تنوع ألوان هذه الأزاهير أحمر وأصفر، فيرده الشاعر إلى ما يخطر في ذهن الإنسان من مراقبة وخوف، وحين يرى النّوار وقد قذفه الريح في مياه بردى تنقدح في ذهنه صورة جيشين احدهما مخذول وآخر منصور، يقول(١):

اليومَ نورُ جَيْبِ الدُّجُنّ مَزْرُورُ والظِّلُّ مُنْتَظِمٌ والطَّلُّ مَنْثُورُ
اليومَ نورُ جَيْبِ الدُّجُنّ مَزْرُورُ والظِّلُّ مُنْتَظِمٌ والطَّلُّ مَنْثُورُ
وللرّياض اخْتِيالٌ في ملابسها مثل القصائد ممدودٌ ومقصورُ
كأنّ ما اصْفَرَّ والمحمر يرقبه في محفل النّور محزون ومسرورُ
كأنّ أكمامه من تحت زاهرِه في الدّوح ضِدّان : مهتوكٌ ومستورُ
كأنّ نَوَّارهُ والرّيح تقذفُهُ في الماء جيشانِ: مخذولٌ ومنصورُ

ويصور ابن عنين إحدى روابي دمشق وقد لاحت من بعيد والثلج يكسوها مثل عروسٍ سوداء من آل ساسان تُجلى يوم عرسها وقد اكتست حُلَّةً مزركشةً، يقول(٢):

وربُا عزتّا وقد جادها الثلجُ ولاحتْ من سائر الأقطارِ
كعروسٍ من آل ساسانَ تُجلى في ديبقي حُلَّةٍ وإزارِ

٣.١.٤ الحياة الاجتماعية:

رفدت الحياة الاجتماعية والأحداث السياسية بمجالاتها المتعددة الشعراء الشاميين بصور متنوعة، فقد استعار ابن عنين تشبيهه من الحياة الاجتماعية عندما وصف أهل حلب الذين يبالغون في نتف شعر خدودهم حتى أصبحت وجناتهم كالمنخل، ومن ذلك يقول(٣):

ما زالَ يَنتفُ شعرَ خَدَّيْه إلى أنْ أصبحتْ وجَناتُه كالمُنخُلِ

---

(١)ابن منير، ديوانه، ص١٤٩.
(٢) ابن عنين، ديوانه، ص٧٥.
(٣) المرجع نفسه، ص٢٣١.

واتخذ ابن عنين بعض شخصيات المدن الإسلامية له مجالاً رحباً لبناء صوره، فكان يقرن بعضها ببعض على سبيل التشابه أو التنافر، أو يشّبه بها بعض المظاهر السلبية، ممّا جعل شعره معرضاً لكثير من أسماء معاصريه، ومن ذلك يقول[١]:

زعموا أني هجوت ابنَ شيثٍ كيف أهجوه وهو في العلم آيةْ
إنّما قلتُ إنّه حسنّ الظّنّ حليمٌ كأنّه ابن نفايةْ

وقد استعار فتيان الشاغوري تشبيهه من الحياة المذهبية عندما شكا من إهمال أهل دمشق له، وعدم عنايتهم به، يقول[٢]:

أراني غَرِيباً في دِمَشقَ، وأهلُها بصيرونَ بي لكنْ عَمُوا عَن محاسني
فيا ضيَعتَي فيهم وفَضلَي ظاهرٌ كأنّي لديهم مصحَفٌ عِندَ باطني

وشغف الرشيد النابلسي بإيراد الصورة المستوحاة من الحياة في شعره، فبذل في تطلبها جهداً واسعاً، فإذا ما شاهد الناس مجتمعين حول أحد الغلمان الصباح في مدينة دمشق تمثل صورة الحجاج وهو يتزاحمون في البيت العتيق، ومشهد الناس وهو يجتمعون لاستماع أحاديث السمر، ومن ذلك يقول[٣]:

وشادن رأيتُهُ وحوله الناس زُمرْ
كأنّه البيت لِمَنْ حجّ إليه واعتمرْ
فقلت هل أحدوثة تُتلى عليكمْ أوسمرْ

وتبدو معاقل الأعداء في مخيلة ابن القيسراني بعد معركة أنب بيتاً أخذ يتهاوى لانقطاع الحبال الذي تشدّه إلى الأرض، إذ يقول[٤]:

وأيقَنَتْ أنّها تَتْلُو مَراكزها وكيفَ يَثْبُتُ بيتٌ مالَهُ طُنُبُ[٥]

---

(١)ابن عنين، ديوانه، ص٢٢٤.
(٢) الشاغوري، ديوانه، ص ٥١٨.
(٣) ابن الشعار، قلائد الجمان، ج٣، ص٤٠٦.
(٤) ابن القيسراني، شعر ابن القيسراني، ص٧٥.
(٥) الطُنب: جمع الطُنْب، وهو الحبل يُشدّ به البيت والسّرادق.

ويخيّل لابن منير الطرابلسي وقد تضوّعت رائحة الأزهار من رياض دمشق واهتزت أرضها وربت، أنَّ عطَّاراً قد بثَّ طيبه فيها، وأنَّ خماراً قد سكب خمره في أرضها، ومن ذلك قوله[١]:

لا زال للدَّوح عطّاراً يراوحها وللسحائب خَمَّاراً يُغاديها

أمّا الأمن الذي حظيت به ديار الشام في عهد نور الدين، فيصوّره ابن منير لباساً ليناً وثيراً، يقول[٢]:

لقد ألبس الشام هذا الإباء لبوساً من الأمن ليناً وثيراً

وتبدو ظلال الأشجار التي كان يحلم ابن عنين بتفيُّئها في دمشق مثل ثوب عروس فاح منها عبيرها، يقول[٣]:

أشاقك من عُليا دمشقَ قصورُها وولدان روضِ النَّيربينِ وحورُها

ومنبجسٌ في ظلّ أحوى كأنه ثيابُ عروسٍ فاح منها عبيرها

وصور ابن القيسراني فتوح نور الدين وقد أخذت تستعيد ما بأيدي الأعداء بالمرض الذي أخذ ينتقل بالعدوى من إنسان إلى إنسان ويخصص الشاعر هذا المرض فيجعله (الجرب) الذي سرعان ما ينتشر في جسم المصاب، يقول[٤]:

عَمَّتْ فتوحُكَ بالعدوى معاقلَها كأنَّ تسليم هذا "عند" ذا جَرَبُ

٤.١.٤ الحروب:

كان للحروب الصليبية أثر واضح في بناء الصورة الشعرية، إذ استوحى الشعراء جانباً من صورهم من الحرب وأسلحتها وكأن الشعراء يعكسون في هذه

---

(١) ابن منير، ديوانه، ص١٧٨.

(٢) المرجع نفسه، ص١٩٣.

(٣) ابن عنين، ديوانه، ص ١٥.

(٤) ابن القيسراني، شعره، ٧٤ص.

الصور بعض أنماط الشعور التي تغلغلت في وجدان الأمة، فقد قرن العرقلة الكلبي لمعان البرق في إحدى رياض دمشق ببريق سيوف الممدوح، يقول[١]:

كأنّ لميعَ البَرْقِ في جنباتِها سيوفُ معينِ الدَّين بَيْن الكتائبِ

ويصف ابن الساعاتي مطلع الفجر وإشراق الصباح، مستوحياً ألفاظ الحرب وصورها، وكأنّه يتحدث عن معركة، يقول[٢]:

زَحَفَ الصَّباحُ، وهذه رايـاتُه فهوتْ نجوم الليلِ، وهي حُماتُهُ

لَوْ لَمْ تَخَفْ كرَّ الصَّباحِ لما آنْبَرتْ في الخَافقَيْن خَوافقاً عذُباتُهُ[٣]

حَربٌ جنَتْ قَتْلَ الكرى بحسام بَا رقها فآبَ خضيبةً صفحاتُهُ

أوَ ما ترى نَسْرَ السّماءِ محلّقا فيها، وفي كفّ السّماكِ قنانُه[٤]

وكأنّما شَفَقُ السَّماءِ بذيلها دمُ مَعْرَكٍ تردُ السيوفَ كماتُهُ

ويرسم العماد الأصفهاني صورة طريفة للبراغيث، وقد أحاطت به، تخيلها فيها جيشين ضخمين، في أحد المنازل التي حلَّ بها، يقول[٥]:

عَرَضَتْ جيشَها الفريقان حَوْلي وهي أوفى من أن تُعدَّ وتحصى

لو غزا سنجرٌ[٦] بها الغُزَّ يوماً لم يَدَعْ مِنْهمُ على الأرضِ شَخْصَا

وحين وصف فتيان الشاغوري تدفق أحد الأنهار في دمشق، خُيِّلَ إليه أنّه خيول مغيرة، ومن ذلك يقول[٧]:

أمواجه كالخُيولِ غائرةً بهازم كاسرٍ ومكسورِ

---

(١) الكلبي، ديوانه، ص٣.

(٢) ابن الساعاتي، ديوانه، ج١، ص٦٥.

(٣) عذباته: أطرافه.

(٤) نسر السماء: مجموعة من النجوم في السماء، سميت بذلك على التشبيه بالنسر الطائر، السماك: نجم في السماء، وهما سماكان

(٥)الأصفهاني، ديوانه، ص٢٤٩.

(٦) سنجر: هو السلطان سنجر بن الملك شاه بن ألب أرسلان السلجوقي، أقام في الملك نيفا وستين سنة، توفي سنة ٥٥٢هـ، انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج٦، ص٢٣٧.

(٧) الشاغوري، ديوانه، ص٢٩٧.

وتبدو الغدران وقد هبّت عليها النسيم، فتماوجت بين الرياض مثل حبك الــدروع، كما يقول فتيان[1]:

وكأنَّمــا الغُــدرانُ بــين رياضِــهِ حُبــُـكُ الــدُّروعِ بمِــرِّهِ تَتَمــَوَّجُ

ويشبه ابن القيسراني حزّ القصب السكري بحزّ رقاب الأعداء، إذ يقول[2]:

نَزَلْنــا علــى القَصَــبِ السّــكريّ نــزولَ رجــالٍ يُريــدون نَهْبَــهْ

بِحَــزٍّ كحَــزِّ رقــابِ العــدى وَمَــصٍّ كمــصِّ شِفــاهِ الأحبَّــهْ

٤.١.٥ الطبيعة:

استمدّ الشعراء الشاميون كثيراً من صورهم من بيئــتهم الطبيعيــة، حتــى بــدت أشعارهم موشاة بصنوف الأزهار والورود، وغيرها من النباتات الجميلة، وقد كثرت مثل هذه الصور في شعر ابن منير، إذ شبه دولة نور الدين روحها أرج المهب، ودوحها ميَّاد، وهمته حصَّادة لزرع النفاق، يقول[3]:

زهــرت لــدولتك الــبلاد، فروحهــا أرج المهبّ، ودوحهــا ميّــــادُ

وإذا العــدا زرعوا النفاق وأحصــدوا كيداً فعــزمك نــاقصٌ حصّــادُ

ويمثل ابن منير الأمن الذي نعمت به حلب (أفناناً) وارفة الظلال، جنت بغداد (فواكه أمنها)، إذ يقول[4]:

يركزن في "حلــب" ومــن أفنانهــا تجنــي فواكــه أمنهــا "بغــــداد"

وتشكل الطبيعة بمظاهرها الجميلة صورة مدينة دمشق في وجدان ابن عنين وهو منفيّ بعيداً عن وطنه، فتستدعي مخيلته أوديتها وقد جادها الغيث، فأصبحت رياضاً غنّاء، يقول[5]:

فسقى دمشــق وواديهــا والحمــى متواصلُ الإرعاد منصــمُ العُــرى

---

(١)الشاغوري، ديوانه، ، ص ٧٦.

(٢) ابن القيسراني، شعر ابن القيسراني، ص٩٤.

(٣) ابن منير الطرابلسي، ديوانه، ص ٢٦٢.

(٤) المرجع نفسه، ص٢٦٣.

(٥) ابن عنين، ديوانه، ص٤.

حتى ترى وجهَ الرياضِ بعــارضٍ أحوى وفَودَ الــدوْح أزهــر نيّــرا

ويستمد الشعراء بعض صورهم من الطيور والحيوانات ومتعلقاتها، فقصــف الرعود الذي يصاحب انهمار المطر في دمشق يتمثل في أذن الخيال عند ابن عنــين أسجاع أطيار، يقول[١]:

فســقى اللهُ بــين آبِــل والمــــــر ج ثِقالاً من الغَــوادي والســواري

كلَّ وطفاءَ تحســبُ الرعــدَ فيهــا بعــــــدَ وهنٍ تجــاوُبَ الأطيــارِ

ويلوح جبل سَنير لابن عنين وقد علته القلعة، مثل سنامٍ فوق غــارب بعيــر، يقول[٢]:

ولاح سَــنيرٌ عــن يمينــي كأنَّــهُ سَنامٌ رَعيبٌ فوق غــارب مُصــعبِ

ويستوحي فتيان الشاغوري أجواء فصل الربيع فيجعل العيش في ديار الشــام أخضر بعد أن كان ذابلاً، يقول[٣]:

نشر الربيع لنــا مطــارويَ طيبــهِ فاخضرَّ ذواي العيشِ مــن تَرطيبــهِ

ويصور ابن منير الأعداء وقد حطمهم نور الدين في بيت المقدس بــالمراعى الذي تناثر وتتطاير، يقول[٤]:

وغداً يُلقــى علــى "القــدس" لهــا كَلْكَلٌ يدرُسُهــــــا دَرْسَ الــــدَّرين

وعندما حاول الفرنجة في أفامية الإغارة على المسلمين، صوّر ابن منير المدينــة حيواناً مفترساً فغر فمه، فهتم نور الدين أسنانه، يقول[٥]:

فَغَــرَتْ "أفاميــة"[٦] فمــاً فَهَتَمتــهُ كَبَــوَارٍ أجنــــــاها الأران بوارِها

---

(١)ابن عنين، ديوانه، ص٧٥.

(٢) المرجع نفسه، ص٨٩.

(٣) الشاغوري، ديوانه، ص١١.

(٤) ابن منير، ديوانه، ص٢٠٠.

(٥) المرجع نفسه، ص٢١٦.

(٦) أفامية: مدينة حصينة من سواحل الشام وكورة من كُور حمص.

٢.٤ الصورة والحواس:

اعتمد الشعراء على حواسهم في بناء صورهم اعتماداً واضحاً، وكانت الصور المرئية التي تعتمد على البصر، مثل اللون، والهيئة، وانفعالات الوجه، والحركة بأنواعها من أكثر الصور دوراناً في الشعر، كما نجد صوراً أخرى تتوسل بالسمع وتصف الأصوات، وصوراً أخرى تتوسل باللمس والشم[١].

فقد تداخلت في الأبيات التالية التي قالها ابن القيسراني في وصف ربيع حلب، " أطياف الألوان الزاهية في الاستعارات التي تصوّر الحركة الهادئة والأصوات الخافتة"[٢]، فبدت صورة فنية متكاملة، إذ يقول[٣]:

ملكَ المدى يومٌ أغرٌّ محجّل ... يأتي السوابقَ وهو مِنْها أوّلُ

يختال في عِطْفَيْهِ جوٌّ ضاحك ... ويميس في طرفيهِ عامٌ مُقْبِلُ

جاءَ الربيعُ له بأكمل زينةٍ ... فأتاك في خِلَعِ الغمائم يرْفلُ

مِنْ أقحوانٍ ما جرى دَمْعُ الحيا ... إلاّ تبسَّمَ من شقيقٍ يَخْجَلُ

وعيونِ نَوْرٍ هرمَّتْ أجفانُها ... فسرى يُنبِّهُها النسيّمُ المُرْسَلُ

فلكلٌ ضاحكةٍ إذا استجليتَها ... ثَغْرٌ بأفواه العيون يُقبّلُ

وقد تنوعت الصورة في شعر ابن الدّهان الموصلي، فاختار لها ضروباً من الحركة والألوان والأصوات، كما في الأبيات التالية التي تتابعت فيها الصور الجميلة للرياح التي تهب من تلقاء منازل المحبوبة، يقول[٤]:

سقاها الله منزلةً وحيّا ... طوينا بعدها اللذات طيا

وأياماً بقربكم تقضّتْ ... كأنّ العيش فيها كان فيّا

أرى عند الرّياحِ لكمْ حديثاً ... أواجهها فتُميله عليّا

---

(١) للاستزادة انظر: الرّقب، الشعر العربي في بلاد الشام في القرن السادس الهجري، ص٣٢٥.

(٢) ابن القيسراني، شعر ابن القيسراني، ص٤٩٥.

(٣) المرجع نفسه، ص ٣٢١.

(٤) ابن دهان، ديوانه، ص١٥٠.

أغار إذا الغصونُ صغتْ إليها مخافةَ أنْ ستحكي منه شيّا
إذا هبَّتْ أحمِّلها زفيراً فيرجعُ وقْرُها طيباً وريّا
كأنّ بها حذاراً من رقيبٍ فتسري خيفةً ليلاً إليّا

فالصورة تغذي النسق العام للأبيات، وترسم إيقاعات فنيو متلاحقة لمواجد الشاعر، إذ تتداخل فيها الحركة المتتابعة، والأصوات الخافتة، والرائحة الزكيّة، وممّا ضاعف جمالها تلك الألفاظ السهلة، والتراكيب السلسة والموسيقى العذبة.

وتتآلف في الأبيات الصورة الحركية واللونية والذوقية في سياق جميل يصور اهتزاز الأغصان، وتساقط جناها على الأرض، ولون هذه الثمار ومذاقها، يقول(١):

إذا الغصون هَزَزْناها لِنَيْل جنىً صارت كواكبها حَصْبَا أراضيها
مِنْ كُلِّ صفراءَ مثل الماءِ يانعةً تخالُها جَمْرَ نارٍ في تلظّيها
لذيذة الطعمِ تحلو عند آكلها بهيّة اللون تحلى عند رائيها

وقد رسم لنا ابن الدهان صورة جميلة للدوح، مازجاً فيها بين الحركة المتمايلة المتماوجة، والصوت الجميل، في إطار من التشخيص يبدو فيها الدوح في صورة فتاة نشوى يغني لها الحمام، ويصفق على النهر، فيهتز طرباً، كما في الأبيات الآتية، إذ يقول(٢):

نشوى يُغنّي لها وُرْقُ الحمام على أوراقها ويدُ الأنواءِ تسقيها
صفا لها الشربُ فاخضرَّتْ أسافلها حتّى ضفا الظلُّ وابيضتْ أعاليها
وصفَّق النَّهرُ والأغصانُ قد رقَصَتْ فنقَّطْتهُ بِدُرٍّ مِنْ تراقيها

وقد يأتي التعبير عن اللون بصورة غير مباشرة، فيستخدم الشاعر ألفاظاً توحي به وتدل عليه، كما في قوله(٣):

أيّام دولتك الربيع وما سوى أفعالك الحسنى لها أزهار

---

(١) ابن الدهان، ديوانه، ص٢٣٧.
(٢) المرجع نفسه، ص٢٣٥.
(٣) الحنبلي، شفاء القلوب، ٢١٨.

واستطاع النابلسي أن يوظف الصورة اللونية في المواقف الجمالية، كما في قوله يصف حسن القساوسة في أحد الأديرة[١]:

بين قسوسٍ كأنّ أوجهَهُمْ لَدَى مَحاربِيهم قناديل

وحين يصف الرشيد زيارة ليلية لإحدى صاحباته له في أحد المنازل، فأنه يتعلق بالمكان العلوي فيصور النجوم وقد انعكس ضوءها على بسيط أخضر، فبدا هذا الضوء وكأنه زهر متناثر هنا وهناك، وتظهر الثريا في هذا المشهد في صورة عقد أنيق نظامه، ويقرن النابلسي بين الصور اللونية والحركة المتوترة حين يصور الزهرة ترتجف خوفاً من انقضاض النسر عليها، إذ يقول[٢]:

وليلة زارتْ والنجومُ كأنّما على روضة خضراء من زُهرها زَهرُ
وعِقدُ الثريّا في أنيق نظامه يطابقُهُ من أنجم النّثر والنِّثر
وللزهرة الغراء في القرب رجفةٌ مخافة أنْ ينقضّ منقضها النسرُ

ونرى غالباً الصور الحركية في قصائد النابلسي، وتكثر في وصف المشاهد الحربية العنيفة، كما في قوله يصف الجموع الصليبية التي احتشدت في بيت المقدس، يقول[٣]:

جاءوا كما أقبل الطود الأشم له من حيث ما سرت فيه مسلك وعرُ
وجئتهم مثلما انقضّ القضاء فلا والله لم يغنهم بأس ولا وزرُ
مدّوا كما مدّ فيض البحر ملتطم الـ أمواج حتى إذا قابلتهم جزروا

ويمزج ابن الساعاتي بين الصور الحركية والصوتية في وصف مدينة دمشق، يقول[٤]:

كم روضةٍ رقصت معاطفُ دوحها واتت بلابلها بحسن لحونها

---

(١) ابن الشعار، قلائد الجمان، ج٣، ص٣٧٩.
(٢) الحنبلي، شفاء القلوب، ٢٦٠.
(٣) المرجع نفسه، ص١٦٧.
(٤) ابن الساعاتي، ديوانه، ج١، ص١٢٥.

وتتداخل الصور الحركية والصوتية واللمسية والبصرية عند ابن الساعاتي، في وصف مشهدٍ ربيعيّ، إذ يقول[١]:

إذا رقصت هيف الغصون وصفّقت جداولها زهواً بشدو حمامه
ويا حبّذا مرّ النسيم على الحشا على أنه أعدى الحشا بسقامه
إذا موّه الماء الشعّاع بناره عجبت لبرد الماء تحت ضِرامه
ووجه الضحى طلق الأسرة ضاحك كوجه صفي الدين يوم سلامه

وتكثر الصور السمعية في شعر فتيان الشاغوري حين يصف بعض المناظر الربيعية في دمشق، كما في قوله[٢]:

هو كالإمام فكل شحرورٍ على فَنَنٍ بِمنبره أتى وخطيبه

وقوله[٣]:

يا حبذا رقصُ الغُصونِ على غِنا ءِ الطير حين أجاد في تطريبِه

وقوله[٤]:

في ظله نغم الأوتار تنعم بالأ وطار من صخبٍ يأتي بمصطحب[٥]

وقوله[٦]:

يا قاتل اللهُ الحمائمَ إنّها بغنائها للعاشقين تُهيَّجُ

وقوله[٧]:

والطَّيْرُ بين مُغَرِّدٍ ومُعربدٍ ومُرَدِّدٍ ومُعَدِّدٍ نّواحِ

---

(١)ابن الساعاتي، ديوانه، ج١، ص٢٤٠.
(٢) الشاغوري، ديوانه، ص١١.
(٣)المرجع نفسه، ص١١ .
(٤) المرجع نفسه، ص١٥.
(٥) المصطحب: يرجح أنه الانسجام النغمي.
(٦) الشاغوري، ديوانه، ص ٧٦.
(٧) المرجع نفسه، ص٩٠.

ويوظف فتيان الصورة الذوقية في وصفه لأخلاق الممدوح، كما في قوله[١]:

خُلْقُه كالجُلاّبِ[٢] إن يَــرْضَ خلــق يجلُب السُّخْطَ سَطْوُ سَــوطِ عــذابِ

كما يستخدم الصور الشمية في أوصافه، كما في قوله[٣]:

أنتَ طيّبتَ أرضَ جيرانِ جيرونَ[٤] فَفــــاحتَ بَيْـــنَ المــلا بــالملاب

وقوله[٥]:

فكأنّما أنفاسُهُ ما بيننـــــــا عَبَقَتْ بغاليةٍ علــى تُفّـــــــاحِ

وتكثر الصور الحركية في وصف فصل الربيع في شعر فتيان، ويقدم لنا ألواناً من الحركات، كما في قوله[٦]:

أو ما تَرى أنّ الربيــعَ كأنُّــهُ ثَمِلٌ يُرَنِّحُـــهُ هُبُوبُ رِيـــــاحِ

والرَّوضُ يَغْمزُنا بعيني نرجسٍ غضٍّ ويَبسمُ عن ثُغُورِ أقـــــاحِ

وكأنّما المنثور مــدَّ أكُفَّـــــهُ بأناملٍ بين النّـــدام مِـــلاحِ[٧]

ويتراءى لفتيان الشاغوري وهو يصف طبيعة مدينة دمشق، أن يقدم مجموعة من الصور اللونية الجميلة التي تعبر عن جمال المنظر، إذ يقول[٨]:

رَوضُ الرَّبيــعِ مُفَــوَّفٌ ومدبَّجُ هل كانَ في صنعاءَ قِدماً يُنْســجُ

---

(١)الشاغوري، ديوانه، ص ٤٤.

(٢) الجلاب: اصطلاح مولد وهو ماء الزبيب المنقوع.

(٣) الشاغوري، ديوانه، ٤٥.

(٤) جيرون: باب من أبواب دمشق وأصله باب معبد دمشق القديم.

(٥) الشاغوري، ديوانه، ص٩٠.

(٦) المرجع نفسه، ص٩٠.

(٧) ندام: جمع نديم.

(٨) الشاغوري، ديوانه، ص٧٥.

وقوله[١]:

إنَّ فصلَ الرَّبيعِ بُورك فَضــلاً طيبٌ نشرُهُ قشيبُ البُـــــــرُودِ

ويمزج ابن عنين أيضا بين الصورة والحواس، فتكثر عنده الصور الســمعية والبصرية والشمية، كما في قوله عندما كان يتشوق إلى دمشق وهو بعيدٌ عنها[٢]:

وروضاً إذا ما الريحُ فيه تنسمتْ سُحيراً تخالُ المَنْدلَ الرطبَ أُضرما

وقوله[٣]:

ومدامةً من صــيدنايا نَشــرُها من عنبر وقميصها مــن صَــندلِ

وينقل لنا في البيت التالي تغريد الطيور قارناً ذلك بغناء القيــان، كمــا فــي قوله[٤]:

إذا ضاع ريَّاهُ أذاعتْ طيورُهُ الــ ـــــحديث فتغني عن قيانٍ ومشــحبِ

ويمزج في البيتين التاليين اللذين يصف فيهما رياض دمشق، بين ألوان عدة، كما في قول ابن عنين[٥]:

فما بسطت كفُّ الخضيبِ[٦] بنانَهــا على الأرضِ إلاّ وهي مَوشيَّةُ الأزرِ

فلا حبراتُ العصبِ من نسجِ حمْيَرٍ حكتها ولاما وشّعَ القبطُ فــي مصــرِ

وكذلك في قوله[٧]:

ولاحت جبال الثلجِ زُهــراً كأنهــا ضيـــاءُ صباحٍ أو مفــارقُ أشــيبِ

وشامت قلوصي من حمى تل راهطٍ رياضاً حكتْ وشي اليماني المُعصَّبِ

---

(١)الشاغوري، ديوانه، ١١٧.

(٢) ابن عنين، ديوانه، ص٨٠.

(٣)المرجع نفسه، ص٨٤.

(٤) المرجع نفسه، ص٨٩.

(٥) المرجع نفسه، ص٨٨.

(٦) الكف الخضيب: نجم.

(٧) ابن عنين، ديوانه، ص٨٩.

٣.٤ التشكيل البلاغي لصورة المدينة:

كثرت الصور التقليدية التي استمدها الشعراء الشاميون من أسلافهم، لكنهم لم يقفوا عند حدود الصور الموروثة، وإنّما استفرغوا كثيراً من طاقاتهم الفنيّة في الإتيان بالتشبيهات والاستعارات الجديدة، واستخراج الصور الطريفة، وتوليد المعاني المبتكرة، وقد ربط ابن الأثير ما بين المعاني المبتكرة وبين الصور القديمة ربطاً وثيقاً، ونصح الشاعر بأن يّطلع على أشعار الأقدمين لعلّه ينقدح له منها معنى غريب لم يسبق إليه(١).

وقد توسَّل الشعراء الشاميون بأساليب فنيّة متعددة في تشكيل صورة المدينة، فكثيراً ما كان الشعراء يلجأون إلى الرسم المباشر بالكلمات، فيستخدمونها في معانيها الحقيقية، مستثيرين قدرتها الإيحائية لتأدية المعاني في تعابير جميلة، كما في الأبيات التالية لشهاب الدين التلعفري حيث تتآزر فيها الدلالات الحقيقية للألفاظ، وما تستثيره من ظلال وإيماءات لرسم صورة متمنّاة لمدينة دمشق، يقول(٢):

جادتك يا –شرف الميدان– سارية ... ولا تعدّاك هامي الوْدقِ هَتَّانُ(٣)

وَدُبّجت لَكَ يا سطرى سطور ربا ... من الرّياض لها بالزّهرِ ألوانُ(٤)

وفَاحَ –يا وادي الشّقراء– منك شذا ... يضيعُ حينَ يَضوعُ الوَردَ والبانُ(٥)

وَراقَ ماؤك –يا ثورى– ولا بِرجت ... تميل فوقكَ بالأطيارِ أغْصانُ(٦)

ودامَ رِفقكَ – يا باناس – مُتصّلاً ... حتى يُرى كُلُّ ظامٍ وهو ريّان(١)

---

(١) ابن الأثير، المثل السائر، ج١، ص٦٩.

(٢)التعلفري، شهاب الدين، ديوانه، القسم الثاني، رسالة ماجستير، هنرييت سابا، ص٩٠.

(٣) الودق: المطر كله، شديده وهيّنه، جاد المطر جودا: وبل، الهتّان: المطر فوق الهطل، شرف الميدان: من متنزهات دمشق.

(٤) سَطرى: من قرى دمشق، دبج الأرض المطر: روّضها، والكلمة فارسية معرّبة والدّبج في الأصل: النقش.

(٥) الشقراء: واد بجانب دمشق.

(٦) ثورى: اسم نهر عظيم بدمشق.

تِلكَ الجنانُ، التي حيثُ التفت ترى قصراً مُنيفاً، به حور وولدان[٢]

وفي وصف احتفالٍ بليلة الميلاد في مدينة طرابلس، يقدم لنا أبو المواهيب المعري صورة وصفية جميلة، يقول[٣]:

عَزَّت طرابُلُسٌ فيا لكِ بلدةً طالت بمالكها على البلدان
مَوْجٌ بظاهرها وموجٌ باطن سبحانُ محرزِها من الطُّوفان
يا حسنُها في ليلةٍ راحتْ بها في الله وهي كثيرة النيِّران
ميلادُ من لم تَشتهر أعمامه لكن خؤولته بنو عمران

ويصف شهاب الدين التلعفري يصف بأسلوب مباشر تحدّر المياه بين رياض بيروت، وجمال نسائها اللواتي خرجْن للتنزه في تلك الرياض، إذ يقول[٤]:

وامْرُرْ بِبيروتَ، حيثُ الماءُ مُنْحدرُ يَسيحُ بَيْنَ رِياضٍ للرَّياحينِ
حيثُ البُدورُ على مُلدِ الغصونِ غدتْ تختالُ في غيّدِ الأعطاف واللّينِ

غير أنَّ أكثر الصور دوراناً في شعر المدينة الإسلامية هي الصور التشبيهية بأنواعها المختلفة، حيث يبدو المشبه والمشبه به ظاهرين على نحو واضح، ليلتمس الشاعر وجه مشابهة بينهما توضح فكرته أو تعبر عن عاطفته، أو تزيّن أسلوبه، كما في قول ابن منير يصف قلعة الرها[٥]:

هي أختُ النَّجم إلاّ أنّها منه كالنّجم لرأي المُبْصِرين

وقد تتوالى مجموعة من التشبيهات في أبيات متلاحقة لترسم صوراً لمناظر متعددة يأتلف منها مشهد واحد، على شاكلة قول ابن الساعاتي[٦]:

---

(١) باناس: من أنهار دمشق.

(٢) يشير الشاعر إلى قوله تعالى في سورة الواقعة: " يطوف عليهم وِلدان مخلّدون.." الآيات ١٧، ٢٢.

(٣) الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء الشام، ج٢، ص١١٧.

(٤)التعلفري، ديوانه، ص ٢٢٦.

(٥) ابن منير، ديوانه، ص ١٩٩.

(٦) ابن الساعاتي، ديوانه، ج١، ص١٢٦.

والبرقُ طلــقٌ كالأحبــة ضــاحكٌ   في حجر غــيم كالرقيــب معّبـــسِ
والروضُ فيه من الحسان ملامح   وضـــاحة للنـــاظر المتفـــــــرّسِ
فخدوده وردٌ وهيف قدوده   قُضبٌ ودُعج عيونــه مــن نــرجسِ

ويمزج ابن الساعاتي بين مجموعة من الصور، ففي وصف للطبيعة يقدم لنـــا صورة كلية تقوم على التراكم وجمع الصور الجزئية في سياق واحــد لتتــرك فـــي النفس إحساساً بجمال المنظر، يقول(١):

يا حبَّذا زمنُ الربــيــع ودوحـــــهُ   قيــدُ النواظــر بل عقــالُ الأنفــسِ
وافـــاكَ يبســم والغمــامُ معبـــسٌ   فاعجب لطلعة باســــمٍ ومعــبس
جُليتْ عرائسهُ فهــــمٌّ قلوبنـــــا   واللهو بين مقــــوّضٍ ومعـــــرس
أنفاسُـــــــهُ مــن عنبــرٍ وســماؤهُ   من لؤلوه وبساطهُ من سُنــــــدس

وقد يرسم الشعراء صورة كلية موسعة للمدينة قائمة علـــى الاســتكثار مــن التشبيهات التي تجتمع في سياق واحد، لتترك في النفسِ تأثيراً واحداً، كما في قــول ابن منير في مدينة حلب بعد أن طرد نور الدين الروافض منها(٢):

وهل حَلَــبٌ ســوى نفــسٍ شــعَاعٍ   تَقَسَّــــمها التّمـــادي والتّعـــادي
نفى ابن عمادِ دين الله عنها الشَّـــ   ـــــكاة فأصــبحت ذاتَ العمـــاد
تَبَخَتــرُ فــي كســا عــدْلٍ وبــذل   مدبَّجـــة التَّـــهائم والنِّـــجاد
وفـــي محرابهــا داودُ منــــــه   يهذّبُ حكمة آيــــات صــاد(٣)
تجــاوزتَ النّجــوم، فــأين تبغــي   تَرَقَّ، فلا خَلَــوْتَ مــن ازديـــاد

وحين وصف فتيان الشاغوري جمال الطبيعة الدمشقية عبّر عن افتتانه بهـــا بطائفة من التشبيهات الجميلة، إذ يقول(٤):

---

(١)المرجع نفسه، ج١، ص٢٢٦.
(٢) ابن منير، ديوانه، ص ٢٠٤.
(٣) يقصد سورة ص وهي السورة ٣٨ في القرآن الكريم.
(٤) الشاغوري، ديوانه، ص١١.

وأنامُـــل المنثـــور منـــه خيَّمـــت فحثتْ على الكـــافورِ تُـــربَ عُيُوبِـــهِ
بَسَط الأكفَّ كعاشـــقٍ يـــدعو إلـــى الرحمن أَن يحظى بوصـــلِ حبيبـــه
والوردُ كالخجلان والمنثور مُسْتحيٍ كصـــــبٍ مبتلـــــى برقيبـــــهِ

وتكثر كذلك الصور الاستعارية في شعر المدن الإسلامية، غالباً ما تقوم هذه الصورة على التشخيص فتتمثل المعاني والأشياء شخصاً ينبض بالحيـــاة والحركـــة بشتى مظاهرها، ومن ذلك قول ابن عنين مصوراً في سياق انتقاده أحد القائمين على مسجد دمشق –مصحف عثمان– يصيح ويطلب أن يخلّص به، عامداً إلى المفارقـــة عن طريق الطباق (رافع وخفضه)، واستكمالاً لجوانب هذه الصورة، يقول[1]:

مصحفُ عثمانَ صَاح مِـــنْ حَنَـــقٍ رافـــــــعُ قـــدري ما بالِهِ خَفَضَهْ
الزنكـــــلونيْ صـــارَ يخدمُـــــنِيْ يا ربِّ عجِّلْ بالفـــــأرِ والأرضـــه

وابتهاجاً بدولة نور الدين، شبّه ابن منير الطرابلسي العدل الذي نعمـــت بـــه الرعية في ظل هذه الدولة برداء مدبّج لبسه الناسُ وَزَهُوا به، يقول[2]:

أُلبسوا عَدْلكَ المدبّجَ فاختـــــا لـــوا بناتٍ في وشيةٍ وبنينـــا

وقد يستعير العماد الأصفهاني تشبيهه للطيور المغـــردة أصـــوات الوعـــاظ والقّراء اللذين كانوا ينتشرون في مساجد دمشق، يقول[3]:

وُرقها فـــي منـــابرِ الأيـــكِ مِنْـــــها واعظاتٌ من شأنِهـــــا التذكيرُ
وكـــــأنّ القُـــمريّ مُقْـــــــرِئ آيٍ قد صفا منه صَوْتُـــهُ والضَّمِيـــر

ويبث ابن القيسراني الحياة في الثغور، فيصورها خيولاً تروّض لنور الـــدين وتجمح على غيره، يقول[4]:

ولشمّرت عَنْها الثَغـــورُ وأصـــبحتْ فيها العواصِمُ وهي غَيْرُ عواصِمِ

---

(١) ابن عنين، ديوانه، ص٢٢٩.
(٢) المرجع نفسه، ص١٩٤.
(٣) الأصفهاني، ديوانه، ص١٧٩.
(٤) ابن القيسراني، شعر ابن القيسراني، ص٣٦٣.

تلك التي جَمحتْ على من راضَـها وَدَعَوتْ فانقادَتْ بغيـرِ شـكائِمِ

وعلى الرغم من أنّ الشعراء قد استوحوا كثيراً مـن صـورهم مـن البيئـة المحيطة بهم، وأنّهم وسموا هذه الصور بطابعهم الشخصي، وعلى الرغم مما حققته هذه الصور في التزيين والإبانة والتوضيح، إلاّ أن قسماً كبيراً من الشعر الشامي قد غلب عليه الطابع الشكلي الذي يرمي إلى إظهار قدرة الشاعر علـى البراعـة فـي الوصف، واختراع التشبيهات والاستعارات، وتوليد المعاني الجديدة مـن المعـاني القديمة(١)، ومن مظاهر هذه الشكلية عدم مراعاة الانسجام في الصّور فـي سـياق العمل الأدبي كما في الأبيات التي قالها الشّواء الحلبي في وصف روضة في أحدى مدن الشام، حيث جمع عدداً من الصور المتباينة، فصورة تُمثل الحزن وثانية تصف الانتشاء والعجب، وثالثة تصور الفرح والطرب ورابعة تثير الخوف والفزع، يقول:

فالغَمـام الجـونُ تحسـبهُ حين يهمي جفـنَ مُنتْخـبِ
والصِّبـا في الروض قد سحبتْ ذيلـها تثني على السَّـحُبِ
وفروعُ البـانِ قـد رقصـتْ ورُقَهـا من خفّـة الطّـربِ
والسّـواقي كالأراقـمِ قد أخَذَتْ للـذعرِ في الهَرَبِ

ونرى القاضي ثقة الملك بن أبي جرادة يصف كسر الخليج بمصر فـي صـورة تشبيهيه بسيطة تقوم على المشابهة الشكلية البصرية، يقول(٢):

حبَّـذا كَسْـرُ الخليـجِ وهو ذو مرأى بهيـجِ
حبَّـذا مـا نحـنُ فيـه مِـنْ دُعـاء وضجيـجِ
والشَّـواني فيـه تجـري كالصَّـياصي في النَّسـيجِ
نحـن فـي جـوَّ سمـاءٍ ما لـديهـا من فُـروجِ
كبُـدورٍ فـي بـروج أو سُطـورٍ في دُروحِ
أو زهـورٍ في مـروجٍ أو ملـوك فـي سـروجِ

(١) للاستزادة انظر: الرقب، الشعر العربي في بلاد الشام في القرن السادس الهجري، ص٣٣٧.
(٢) الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء الشام، ج٢، ص٢١٧.

الخاتمة:

وبعد، فقد تمَّ في الصفحات السابقة دراسة صورة المدينة في الشعر الشاميّ في القرنيين السادس والسابع الهجريّين، وقد تبيّن أن المدينة الإسلاميّة كانت عاملاً قوياً من عوامل الإبداع في ذلك العصر، نظراً للظروف التاريخيّة والسياسيّة والثقافية والاجتماعيّة، التي ألمّت بالمدن الإسلاميّة آنذاك.

فقد وصف الشعراء الشاميون مدنهم بما فيها من مظاهر حضارية واجتماعية وثقافية، وصوروا جوانب متعددة من مظاهر الحضارة والعمران فيها، ومن ثمَّ فأنّ هذه الصورة تغني المعلومات التاريخيّة والحضارية عن ذلك العصر.

وعبّر الشعراء الشاميون عن هيامهم بالمدن التي وصفوها، ولاسيما في تصويرهم للمشهد الطبيعي لهذه المدن في فصولها المتنوعة، وارتبط شعر وصف الطبيعة عندهم بأشعار رقيقة ترّف بمشاعر الحنين إلى الأوطان ولاسيما لدى أولئك الشعراء الذين ابتعدوا عن مدنهم قسراً أو برغبتهم، حيث تتراءى في مخيلتهم الشعرية ديار الشام في صورة جميلة موشّحة بمشاعر الشوق والحنين، حتى لتغدو هذه الديار في قصائدهم (جنة الدنيا).

ويشكل هجاء المدينة والنفور منها البعد الثالث من أبعاد المدينة الإسلاميّة في الشعر الشاميّ، وجاء ذلك نتيجة لعوامل اجتماعية نتجت عن علاقة الشاعر بالمدينة وسكانها، وما نتج عن هذه العلاقة من موقف سلبيّ، قد تعود إلى موقف شخصي ذاتي، وقد يدفع ضيق الحال والفقر إلى ذم المدينة وانتقاد قيم أهلها وسلوكياتهم، وقد يكون وراء ذلك أسباب سياسية تدفع الشاعر إلى ذمّ المدينة كما هو الحال عند وفاة صلاح الدين وانتقال الخلافة إلى أبنائه، إذ احتدم الصراع بينهم على الخلافة الأمر الذي جعل هذا المشهد السياسي مجالاً للسخرية والهزل عند الشعراء الشاميين.

ورثى الشعراء الشاميون المدن الإسلاميّة التي تعرضت للتدمير والتخريب على أيدي الغزاة، فقد رثى الشعراء ديار الشام عامّة وبيت المقدس وعسقلان والمعرة وديار جوران، وصوروا في مراثيهم ضروب الفواجع والمآسي التي تعرضت لها هذه المدن، من تدمير، وتقتيل، وسبي وأسر، كما رثى الشعراء بعض المدن التي

دمرّها المغول، وقد جاءت مراثيهم جميعاً محملة بطاقات انفعالية تعبّر عن مشاعر الحزن والأسى، وتحث الأمّة على الدفاع عن هذه المدن.

وتوسّل الشعراء بأساليب فنية متعددة في رسم صور فنية جميلة للمدينة الإسلاميّة، وقد استوحوا صورهم من مصادر فنية متعدة، وكانت الصورة الأنثوية من أبرز هذه الصور، حيث تتشخص المدينة في هيئة امرأة، ثمّ تتنوع الصورة حسب الحالة التي تكون عليها المدينة، وجاءت معظم الصور التي وصفت المدينة ذات طابع حسيّ، ومنه أنَّ الصورة اللونية كانت هي الغالبة على أوصافهم، إلاّ أنّ هذه الصورة امتزجت بصور حسيّة أخرى : السمعية والشمية واللمسية، لتأتلف من ذلك صور متعددة تعبّر عن استغراق الشاعر في حبّه لمدينته وتعلّقه بها بحواسه كلّها.

وأخيراً، فأنّه يمكن النظر إلى معظم الشعر الذي قيل في وصف المدن الإسلاميّة في القرنيين السادس والسابع الهجريّن، على أنّه صورة من صور الحديث عن فضائل البلدان ومظهراً من مظاهر التعلّق بالأرض الإسلاميّة التي كانت تتعرض آنذاك للغزو الصليبيّ الذي عمل جاهداً على تغيير الوجه الحضاريّ لتلك الأرض.

المراجع

إبراهيم، نبيلة، خصوصية التشكيل الجمالي للمكان في أدب طـــه حســـين، **مجلـــة فصول**، العددان الأول والثاني، أكتوبر ١٩٩٠م، ص ص٢٩-٦٤.

الأبيوردّي، محمد بن إسحق. (١٩٧٥). **ديوانه**، تحقيق د.عمـــر الأســـعد، دمشـــق، مطبعة زيد بن ثابت.

ابن الأثير، ضياء الدين. (١٩٦٢). **المثل السائر، تحقيق: أحمد الحـــوفي وبـــدوي طبانة**، دار الفكر، القاهرة.

ابن الأثير، عزّ الدين علي بن أبي الكرم محمد. (١٩٦٣). **التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل**، تحقيق: عبد القادر طليمات، دار الكتب الحديثة ومكتبة المثنى، القاهرة، وبغداد.

ابن الأثير، محمّد بن محمّد. (١٩٨٠). **الكامل في التـــاريخ**، دار الكتـــاب العربـــيّ، بيروت.

إسماعيل، عز الدين. (١٩٧٥). **في الأدب العباسي الرؤيـــة والفـــن**، دار النهضـــة العربية للطباعة، بيروت.

الأصفهانيّ، العماد أبو عبدالله محمد بن حامد. (د.ت). **الفيح القســـيّ فـــي الفـــتح القدسيّ**، تحقيق محمد صبح، الدار القوميّة للطباعة والنشر، القاهرة.

الأصفهاني، العماد أبو عبدالله محمد بن حامد. (١٩٨٣). **ديوانه**، جمع وتحقيق ناظم رشيد، الموصل، جامعة الموصل.

الأصفهانيّ، أبو عبدالله محمد بن حامد. (١٩٥٩). **خريدة القصر وجريدة العصـــر – قسم شعراء الشام**، تحقيق: شكري فيصل، دمشق، المجمع العلميّ العربيّ.

الأصفهاني، العماد، خريدة القصر وجريدة العصر، قسم العراق، تحقيق: محمد بهجة الأثري، وجميل سعيد، مطبعة المجمع العلمي، العراق، ١٩٥٥، ج٣.

ابن أبي أصيبعة، أبي العباس أحمد بن قاسم. (د.ت). **عيون الأنبـــاء فـــي طبقـــات الأطباء**، تحقيق د. نزار رضا، مكتبة الحياة، بيروت.

ابن أيّوب، تاج الملوك بوري. (.١٩٨٨) **ديوانــه**، تحقيق محمد عبدالحميــد ســالم، هجر للطباعة والنشر، القاهرة.

باشا، عمر موسى. (١٩٦٤). **الأدب في بلاد الشام في عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك**، المكتبة العباسية، دمشق.

باشلار، جاستون. (١٩٨٠). **جماليات المكان**، ترجمة: غالب هلســا، دار الجــاحظ للنشر، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد.

بدوي، أحمد أحمد. (١٩٧٩). **الحياة الأدبية في عصــر الحــروب الصــليبية**، دار نهضة مصر، القاهرة.

بدوي، عبده. (١٩٩٧). **التقاء العمارة الإسلامية بالشعر مع تطبيقات على الشــعر الحديث**، دار الهلال، القاهرة.

البكور، حسن فالح حسين. (١٩٩٩). **المدينة في الشعر العباسي حتى نهاية القــرن** الرابع الهجري، رسالة دكتوراة غير منشورة، جامعة اليرموك، الأردن.

ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن محمد. (د.ت). **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، القاهرة، نسخة مصوّرة عن طبعة دار الكتب، دار الكتب المصريّة.

التلعفري، شهاب الدين. (د.ت). **ديوانه**، القسم الثاني، تحقيق: هنرييت سابا، (د.ن)، (د.م).

أبو تمام، **ديوانه**، شرح الخطيب التبريزي، تحقيق: محمــد عبــده، دار المعــارف، مصر، ط٣، ١٩٧٦.

ابن جبير. (١٩٨٠). **رحلة ابن جبير**، دار صادر، بيروت.

جرار، مأمون. (١٩٨٣). **أصداء الغزو المغولي في الشعر العربــي مــن القــرن السابع إلى القرن التاسع للهجرة**، مكتبة الأقصى، عمان، الأردن.

الجلياني، عبدالمنعم. (د.ت). **منادح الممادح وروضة المآثر والمفاخر في خصائص الملك الناصر**، مخطوط رقم ٣٢٩٨أدب، مكتبة الأسد الوطنية، دمشق.

الجندي، أحمد. (١٩٨٤). **شعراء من بلاد الشام**، دار طلاس، دمشق.

جياووك، مصطفى عبداللطيف. (١٩٧٧). **الحياة والموت في الشعر الجاهلي**، منشورات وزارة الأعلام، العراق، سلسلة دراسات١٢٣.

حسين، محمد محمد. (١٩٦٩). **الهجاء والهجاؤون في صدر الإسلام**، ط٢، دار النهضة العربية، بيروت.

حمادة، محمد ماهر. (١٩٨٦). **وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٣.

الحمصيّ، ابن الدّهان. (١٩٦٨). **ديوانه**، تحقيق عبدالله الجبوري، مطبعة دار المعارف، بغداد.

الحموي، شهاب الدين أبي عبدالله ياقوت بن عبدالله ، معجم الأدباء، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، ١٩٩٣.

الحموي، محمد ياسين. (١٩٤٦). **دمشق في العصر الأيوبي**، مكتب النشر العربي، دمشق.

الحمويّ، ياقوت بن عبدالله. (١٩٧٩). **معجم البلدان**، بيروت، دار صادر.

الحنبلي، أبو الفلاح عبدالحي بن العماد. (١٣٥٠هـ). **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، مكتبة القدسي، القاهرة.

الحنبلي، أحمد بن إبراهيم. (١٩٧٨). **شفاء القلوب في مناقب بني أيّوب**، تحقيق ناظم ارشيد، بغداد، وزارة الثقافة.

الحنبلي، كمال الدين عمر بن أحمد بن العديم. (د.ت). **بغية الطلب في تاريخ حلب**، (ميكروفلم) رقم ٩٢٩ تاريخ، معهد إحياء المخطوطات العربية، القاهرة.

خربوش، حسين. (١٩٩٢). ظاهرة السقيا وإبعادها الدلالية في القصيدة العربية، **مجلة جامعة البعث**، ع١١، ص ص١٧-٥٢.

خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد ابن محمد. (١٩٦٨). **وفيات الأعيان وأنباء الزمان**، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

خليل، عماد الدين. (١٩٨٠). **الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام**، بيروت، ١٩٨٠.

الدمشقي، أبو الفداء إسماعيل بن كثير. (١٩٦٩). **تفسير القرآن العظيم**، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

الدمشقي، أبو الفداء الحافظ بن كثير. (١٩٨٧). **البداية والنهاية**، تحقيق د. أحمد أبو ملحم وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣.

دنينير، إبراهيم بن محمد بن إبراهيم، (١٩٨١)، **ديوانه**، تحقيق: محمود شاكر سعيد، جامعة الأزهر، القاهرة.

دهمان، أحمد علي. (د.ت). **ابن عنين الأنصاري وشعر الحنين والتشوق إلى دمشق الفيحاء، دراسة تحليلية**، دار البعث، الهيئة العامة السورية للكتاب.

الذهبي، شمس الدين. (١٩٨٢). **سير أعلام النبلاء**، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط٢، بيروت.

الربابعة، موسى. (١٩٩٠م). ظواهر الانحراف الأسلوبي في شعر مجنون ليلى، **مجلة أبحاث اليرموك**، م٨، ع٢.

الرقب، شفيق. (١٩٩٣). **الشعر العربي في بلاد الشام في القرن السادس الهجري**، دار صفاء، عمان.

الرقب، شفيق. (١٩٩٦). صور من الحياة الاجتماعية للفرنجة في النثر الفني زمن الحروب الصليبية، **مجلة دراسات الجامعة الأردنية**، المجلد ٢٣، العدد٢، ص ص٣٣٥-٣٥٠.

الرقب، شفيق. (١٩٩٨). شعر الهجاء في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، **مجلة مجمع اللغة العربية الأردني**، عدد ٥٥/ تموز/كانون الأول، ص ص٢٧-٥٦.

الرقب، شفيق. (٢٠٠٩). **دراسات اجتماعية في الأدب الأيوبيّ والمملوكيّ**، دار يافا العلمية، عمان.

الرقب، شفيق. (٢٠٠٩). **شعراء شاميّون في العصر الأيوبيّ**، دار يافا العلمية، عمان.

الرقب، شفيق. (د.ت). صورة المدينة المحتلة في الشعر الشاميّ زمن الحروب الصليبية، **مجلة المنارة**، جامعة آل البيت، ص ص٣٦-٥٥.

رمضان، أحمد. (١٩٧٧). **المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية**، الجهاز المركزي للكتب الجامعية، القاهرة.

رنسيمان، ستيفان، (١٩٦٧-١٩٦٩). **تاريخ الحروب الصليبية**، ترجمة السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت.

الزبيدي، محمد بن محمد. (١٩٦٥). **تاج العروس من جواهر القاموس**، تحقيق: عبدالستار أحمد فراج وآخرون، وزارة الإعلام، الكويت.

الزُّرعي، أحمد بن عقيل بن نصير. (د.ت). **المختار من ديوان ابن عقيل الزُّرعي**، مخطوط رقم ٢٨١٦، طبقبوسراي، تركيا.

الزركلي، خير الدين، (١٩٧٩)، **الأعلام**، دار العلم للملايين، ط٤، بيروت.

ابن السُّاعاتي، عليّ بن رستم. (١٩٣٨). **ديوانه**، تحقيق أنيس المقدسيّ، بيروت، المطبعة الأمريكيّة.

السبكي، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي، (١٩٧٠)، **طبقات الشافعية الكبرى**، تحقيق محمود محمد الطناحي، عبد الفتاح محمد الحلو، ط١، مطبعة عيسى البابي الحلبي، الجزء السابع.

سلام، محمد زغلول. (١٩٦٧). **الأدب في العصر الأيوبيّ**، دار المعارف، القاهرة.

الشّاغوريّ، فتيان. (١٩٧٦). **ديوانه**، تحقيق أحمد الجنديّ، مجمع اللغة العربية، دمشق.

أبو شامة، شهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل المقدسي، (١٩٧٤). **الذَّيل على الروضتين في أخبار الدولتين**، بيروت، دار الجيل، ط٢.

أبو شامة، شهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل المقدسي، (د.ت). **الرّوضتين في أخبار الدولتين: النوريّة والصلاحيّة**، بيروت، دار الجيل.

ابن شداد، بهاء الدين. (١٩٦٤). **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية**، تحقيق د. جمال الدين الشيال، القاهرة.

ابن شداد، عزّ الدين أبي عبدالله محمد بن علي بن إبراهيم. (١٩٥٦). **الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة**، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق سامي الدّهان، المعهد العلمي الفرنسي، دمشق.

ابن الشعّار الموصليّ. (د.ت). **عقد الجمان من شعراء هذا الزمان**، ميكرو فيلم رقم ٣٣٩ تاريخ، معهد أحياء المخطوطات العربيّة، مصر.

الشوابكة، محمد. (١٩٩١). دلالة المكان في مدن الملح لعبد الرحمن منيف، **مجلة أبحاث اليرموك**، م٩، العدد الثاني.

الشوكاني، محمد بن علي. (١٩٢٩). **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع**، القاهرة،.

الصفدي، خليل بن إيبك. **الوافي بالوفيات**، الجزء الثالث والعشرون، مخطوط رقم٢٥/٢٩٢٠، مكتبة احمد الثالث، عنه نسخة مكبرة في مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية من غير رقم.

الطباخ، الشيخ محمد راغب. (١٩٢٣). **أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء**، المطبعة العلمية، حلب.

الطبري. أبو جعفر محمد بن جرير (١٩٨٧). **تاريخ الطبري: تاريخ الأمم والملوك**، دار الكتب العلمية، بيروت.

ابن الطرابلسيّ، أحمد بن منير.(١٩٨٦). **ديوانه**، جمعة وقدَّم له د.عمر التدمريّ، بيروت، دار الجيل، طرابلس، مكتبة السّائح.

عاشور، سعيد عبدالفتاح. (١٩٧٤). **المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية**، الدار المتحدة للنشر، بيروت.

عباس، إحسان. (١٩٩٨). **تاريخ بلاد الشام في عهد الأتابكة والأيوبيين**، منشورات لجنة تاريخ الشام.

عبدالحقّ البغداديّ، صفيّ الدين عبدالمؤمن. (١٨٥٢). **مراصد الإطّلاع على أسماء الأمكنة والبقاع**، ليدن، مطبعة بريل.

عبدالصبور، صلاح. (١٩٨٢). **قراءة جديدة لشعرنا القديم**، دار اقرأ، بيروت.

عبدالمهدي، عبدالجليل. (١٩٨٩). **بيت المقدس في أدب الحروب الصليبيّة**، عمّان، دار البشير.

العبري، أبو الفرج غريغوريوس بن أهرون الملطي.(١٩٨٣). **تاريخ مختصر الدول**، دار الرائد اللبناني، بيروت.

ابن العديم، كمال الدين الحلبي، (١٩٦٨). **زبدة الحلب من تاريخ حلب**، تحقيق سامي الدّهان، المعهد الفرنسيّ، دمشق.

ابن عساكر، الحافظ أبو الحسن علي بن حسن. (١٩٧٦). **تاريخ مدينة دمشق**، م٢، تحقيق د.صلاح الدين المنجد، المجمع العلمي العربي، دمشق.

ابن عساكر، الحافظ أبو الحسن علي بن حسن. (د.ت). **تاريخ مدينة دمشق**، ج١٥، ج١٦ ، مكتبة الجامعة الأردنية.

ابن عساكر، الحافظ. (١٩٧٩). **تهذيب تاريخ دمشق الكبير**، هبة عبدالقادر بدران، دار السيرة، بيروت، ط٢.

العسقلاني، ابن حجر. (د.ت). **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**. حققه وقدم له ووضع فهارسه محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة، مصر.

علي، محمد كرد. (١٩٦٩). **خطط الشام**، مطبعة المفيد، دمشق، الجزء الأول.

العمري، شهاب ابن فضل الله. (١٩٢٤). **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، تحقيق أحمد زكي باشا، دار الكتب المصرية القاهرة.

عنين، شرف الدين محمد بن نصير. (د.ت). **ديوانه**، تحقيق خليل مردم بك، بيروت، دار صادر.

غوستاف، لوبون. (١٩٥٧). **حضارة العرب**، ترجمة محمد بدران، القاهرة، جامعة الدول العربيّة.

أبو الفداء. (١٨٤٠). **تقويم البلدان**، دار الطباعة السلطانية، باريس.

ابن القلانسيّ، حمزة بن أسد بن عليّ. (١٩٨٣). **تاريخ دمشق**، تحقيق د. سهيل زكّار، دمشق، دار حسّان.

القلقشندي. (١٩٦٣). **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة.

ابن القيسرانيّ، أبو عبدالله محمد بن نصير. (١٩٩١). **شعر ابن القيسراني**، جمع وتحقيق ودراسة د.عادل جابر، الزرقاء، الوكالة العربيّة للتوزيع.

الكتبي، محمد بن شاكر. (١٩٧٣). **فوات الوفيات**، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

الكتبي، محمد بن شاكر. (١٩٧٧). **عيون التواريخ**، تحقيق د. فيصل السامر ونبيله عبد المنعم، وزارة الإعلام العراقية، بغداد.

الكلبيّ، العرقلة. (١٩٧٠). **ديوانه**، تحقيق أحمد الجندي، مجمع اللغة العربية، دمشق.

لودفيش، بيركهارت. (١٩٩٦). **رحلات بيركهارت**، ترجمة أنور عرفات، عمّان، وزارة الثقافة.

المستوفي، أبو البركات المبارك بن أحمد. (١٩٨٠). **تاريخ آربل**، تحقيق سامي الصقَّار، بغداد، دار الرشيد.

المغيض، تركي. (١٩٨٩). جماليات المكان في شعر عرار، **مجلة مؤتة للبحوث والدراسات**، المجلد٤، العدد٢، ص ص١٨٦- ٢٤٣.

المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي. (١٩٥٦). **السلوك لمعرفة دول الملوك**، نشر محمد مصطفى زيادة، مطبعة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط٢.

المنقذ، أسامة. (١٩٣٠). **كتاب الاعتبار**، تحرير فيليب حتي، جامعة برنستون.

منقذ، أسامة. (د.ت). **ديوانه**، تحقيق أحمد أحمد بدوي وحامد عبد المجيد، القاهرة، عالم الكتب.

الموصلي، ابن الشعار المبارك بن أحمد. (د.ت). **قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان**، معهد إحياء المخطوطات العربية، القاهرة.

هدراة، محمد مصطفى. (١٩٨١). **اتجاهات الشعر في القرن الثاني الهجري**، دار المعارف، مصر.

واصل، جمال الدين محمد. (١٩٥٣). **مفرِّج الكروب في أخبار ملوك بني أيّوب**، تحقيق جمال الدين الشيَّال، القاهرة، دار إحياء التراث القديم.